مجلة ثقافية – دعوية – إيمانية – منبر علمي دعوي - تأسست عام ١٤٣٥هـ/ ٢٠١٤م

مشكاة النبوة

العدد الأول – ربيع الأول – السنة الأولى ١٤٣٥هـ/ ٢٠١٤م

* كيف نستفيد من الكتب الحديثية الستة؟
* من آيات الاستخلاف والتمكين في القرآن.
* حكم الانتماء إلى جماعات وأحزاب دينية؟ ونقد العلماء؟
* من وصايا لقمان .. لابنه.
* أخطاء شائعة في قراءة الفاتحة.
* الانحراف في حياة البشرية، والشرك تعريفه وأنواعه.

- من فضائل أم المؤمنين عائشة ومناقبها رضي الله عنها حبيبة رسول الله.
- طريقة أهل السنة والجماعة في الإصلاح في المجتمع.

محتويات العدد

٢ * الافتتاحية : مجلة مشكاة النبوة في عامها الأول ومنهجها.

رئيس التحرير

٦ * من آيات الاستخلاف والتمكين في القرآن.

الشيخ: عاطف بن عبد المعز الفيومي

١٦ * إفشاء السلام من شعائر الإسلام.

الشيخ: عاطف بن عبد المعز الفيومي

١٩ * كيف نستفيد من الكتب الحديثية الستة؟

للشيخ: عبد المحسن بن حمد العباد البدر

٢٦ * القصص النبوي الصحيح : القصة الأولى.

الشيخ: عاطف بن عبد المعز الفيومي

٢٧ * الانحراف في حياة البشرية، والشرك تعريفه وأنواعه.

للشيخ الدكتور: صالح بن فوزان الفوزان

٣٠ * أمتنا الإسلامية بين الواقع المعاصر وطريق العودة.

الشيخ: عاطف بن عبد المعز الفيومي

٣٨ * طريقة أهل السنة والجماعة في الإصلاح في المجتمع.

للشيخ العلامة: محمد بن صالح العثيمين رحمه الله

٤٠ * الشباب المسلم والاستفادة بالوقت واستثماره.

الشيخ: عاطف بن عبد المعز الفيومي

٤٤ * قطوف من ينابيع العلم والإيمان.

مجلة مشكاة النبوة

٤٦ * حكم الانتماء إلى جماعات وأحزاب دينية؟ ونقد العلماء؟

للشيخ العلامة: عبد العزيز بن باز رحمه الله

٤٨ * من وصايا لقمان .. لابنه.

للشيخ: محمد بن جميل زينو رحمه الله

٥٠ * من فضائل أم المؤمنين عائشة ومناقبها.

الشيخ: عاطف بن عبد المعز الفيومي

٥٥ * أخطاء شائعة في قراءة الفاتحة.

للشيخ: محمد بن جميل زينو رحمه الله

٥٧ * شعر : الأقصى يناديكم.

للشاعر الدكتور: عبد الرحمن بن صالح العشماوي

"وقل رب زدني علمًا"

مجلة
مشكاة النبوة
على منهاج النبوة

دعوية – إيمانية ـ ثقافية

العدد الأول – ربيع الأول
السنة الأولى ١٤٣٥ هـ/ ٢٠١٤م

تصدرها
مكتبة العلم والإيمان
الإلكترونية

المدير العام للمجلة
ورئيس التحرير
الكاتب
الشيخ عاطف بن عبد المعز الفيومي

للحصول على نسخة شهرية من أعداد المجلة فضلًا إرسال رسالة من بريدكم الإلكتروني مكتوب فيها :

(اشتراك مجلة مشكاة النبوة)

على البريد التالي
alalam_aleman77@yahoo.com

الافتتاحية

مجلة مشكاة النبوة في عامها الأول ومنهجها

بقلم: رئيس التحرير

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على مَن لا نبي بعده، نبينا محمد - صلى الله عليه وآله وسلم - تسليمًا كثيرًا، أما بعد: فها هي باكورة جديدة على طريق العلم والدعوة والهداية تطل علي قراءها الكرام "مجلة مشكاة النبوة" بوجهها الجديد، والتي نرجوا من الله تعالى أن يكون فيها الإشراق والعلم والهداية لشبابنا وأمتنا، ونفتتح اليوم في هذا العدد الأول من المجلة التي نحسبها نافعة إن شاء الله تعالى، ونرجوا من الله الإخلاص والصدق والتوفيق فيها لما فيه صلاح المسلمين وهدايتهم نحو الخيرات ونحو المعالي، وإعلاء الهمم نحو القمم..وقد آليت على نفسي أن أسخر قلمي الضعيف، مستعينًا بالله وحده، وأقود هذا الركب زاعمًا السير نحو المعالي والسبيل الأمم، ومتوخيًا قدر الاستطاعة كتابات بعض السادة العلماء الأكابر ممن عرفتهم الأمة بالفقه والرسوخ والثبات، وكل يؤخذ منه ما وافق الحق والهدى، ويرد ما خالف فيه بدليله، ومنتخبًا بعض ثمارهم في ثنايا مجلتنا، لتكون بذلك عماد رفعة، ومنار سبيل، وصدق منهج، ووضوح دليل وبرهان، وبداية لا بد من مدخل مهم في افتتاحية المجلة الجديدة، والتي تصدر عن "مكتبة العلم والإيمان الإلكترونية". وقد اخترت لها هذا الاسم لأسباب ظاهرة العرفان؛..

منها: أن "العلم" أساس الشريعة والدين والحياة، وأول ما نزل من القرآن كان بالأمر بالعلم، وأول ما جاء في الدعوة كان في العلم، فهو قوام الدين والدنيا، وهو صلاح العباد والبلاد، والأمة التي لا تعتني بعلومها ومعارفها محكوم عليها بالفشل والتيه في الظلام الدامس.

ومنها: أن "الإيمان" ثمرة العلم بل ولبه الأوحد، وأنه سر البناء والهداية للأمم، وهو سر العقيدة والتوحيد، فولا الإيمان ما قام الدين، ولا عمرت الدنيا هدًى وصلاحًا، والجامع الأوحد بين العلم والإيمان هو "مشكاة النبوة المحمدية"، الوحي المنزل كتابًا وسنة، ولهذا كان اختيارنا لاسم المجلة مبنيًا على علم وإيمان برسالتها في التوجيه والإرشاد، والمشاركة في ميدان الدعوة والهداية الرحب، عسى أن نكون من الموفقين."إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقي إلا بالله".

منهاج المجلة العام والدعوي

تعتمد رؤية المجلة وتستمد قوتها من قواعد دعوتنا السلفية الوسطية الصافية دعوة الإسلام، ومن أصولها الهادفة لبناء الفرد المسلم في عقيدته وعبادته وأخلاقه ومعاملاته، ومنهج دعوتنا كما يلي:

١- الدعوة والبلاغ بالحكمة فدعوتنا إلى الكتاب والسنة، وفق منهج النبي – صلى الله عليه وسلم –، وما كان عليه السلف الصالح، وهذه الدعوة قائمة على الدعوة إلى كل خير أمر به الكتاب والسنة، والتحذير من كل شر نهى عنه الكتاب والسنة، (قل هذه سبيلي أدعوا إلى الله على بصيرة..)، وإحياء فقه الدعوة والداعية، والبصيرة بأصولها، وملازمة الحكمة والموعظة الحسنة، والرفق بالناس وتعليمهم الإسلام.

٢- بيان وسطية أهل السنة والجماعة في التزامهم بمنهج الإسلام المتمثل في الكتاب والسنة، وهدي السلف الصالح ومن تبعهم بإحسان من أهل العلم والخير والفضل، والتحذير من الغلو في الأقوال والأشخاص والفرق والجماعات.

٣- تحقيق الوحدة والأخوة الإيمانية بين المسلمين، والبعد عن التفرق والاختلاف، والجماعات والحزبيات، والعدل والإنصاف في معاملتهم ودعوتهم والتواصل معهم رجاء هدايتهم لمنهاج النبوة واتباع هدي السلف الصالح.

٤- بيان أصول الإسلام ومحاسنها في العقيدة والتوحيد، والعبادة والأخلاق، والمعاملة والتشريع، في جميع شؤون الحياة، وكذلك إيحاء السنن النبوية المأثورة والعملية بأدلتها، والحث على إحيائها وتطبيقها في حياتنا، والعمل على تصحيح العقيدة وتصفيتها مما شابها من البدع والخرافات، وتصحيح العبادة وما لحقها من صور التعبد الممنوع، وتصحيح الأخلاق والسلوك المخالفة لمنهج الأخلاق في الإسلام، من رواسب الانحراف والتقليد الأعمى وغيرها، والحث على طلب العلم الشرعي والنافع، في جميع العلوم الشرعية والحياة.

٥- الاهتمام بقضايا وهموم الأمة الإسلامية، وهذا الاهتمام ينطلق من ثوابتنا الإسلامية من الكتاب والسنة وتحقيق روابط الأخوة الإيمانية والعقيدية بين المسلم وأخيه، وكذلك نصرة لقضايا المسلمين في العالم الإسلامي والعربي وغيره، وبيان الموقف منها.

٦- الاهتمام بالشباب المسلم وثقافتهم ودعوتهم، وتوعيتهم بمنهج الإسلام القويم بلا إفراط أو تفريط، وكذلك فقه الأسرة والمرأة المسلمة وقضاياها في ضوء الكتاب والسنة.

٧- البناء التربوي الشامل وفق منهج الكتاب والسنة، الذي عليه أهل السنة والجماعة وسلفنا الصالح رضي الله عنهم، وهذه التربية الواعية تشمل: التربية العقائدية، والتربية التعبدية، والتربية الأخلاقية، والتربية العلمية والفكرية والثقافية وغيرها، وهذه التربية منهج إسلامي شمولي، يهدف لبناء الفرد المسلم، والأسرة المسلمة، والمجتمع المسلم الواعي، الذي يعرف الإسلام ويطبق منهاجه وشرائعه حق التطبيق والعمل.

٨- التصدي للفرق والمذاهب المنحرفة عن منهج الإسلام، والجماعات والحزبيات الباطلة، من الفرق التي خالفت سبيل أهل الإيمان والتوحيد، ووقعت في شراك البدع والأهواء، مثل الخوارج والمعتزلة والقدرية والروافض الشيعة وغلاة الصوفية والمدارس التغريبية والعقلانية وغيرها، والعمل على بيان منهجهم وكشف بدعهم وانحرافهم عن منهاج النبوة والإسلام، ومحاربة البدع وأهلها، وبيان خطرها والحد من انتشارها بين أمة الإسلام، وتحذير المسلمين من اتباعها، ودعوة أصحابها.

دعوة على طريق السلف الصالح

فالدعوة الإسلامية خير موضوع، لأنها دعوة الإسلام وحقيقته الربانية الكبرى، وهذه الدعوة اليوم أذن الله لها أن تعود من جديد بقوة وإيمان، لتتبوأ مكانها الأول، وقيادتها للعالم الذي تنكب الطريق الحق، وذهب لاهثاً وبقوة وراء الشهوات والنزوات، والكفر والإلحاد، إلا بقية من أمة الإجابة والهدى أمة الإسلام، التي لم تراوح مكانها بعد لتتسلم مفاتيح القيادة لهذه البشرية اللاهثة خلف السراب، القابعة خلف الحجب والدنايا، لتدلها على طريق هدايتها وسعادتها، وسلامتها وأمنها.

ولكن ثم طريق طويل وشاق بين التكوين لهذه القيادة الرائدة للبشرية، وبين التمكين لها الموعود لها من الله تعالى في الأرض، نعم بدأت ملامحه تلوح في الآفاق، ودبت الصحوة الإسلامية في كل مكان، وبذرت بذورها لكنها لا تزال في حاجة كبيرة إلى العناية والمتابعة، في حاجة إلى التهذيب والتربية، وفي حاجة كذلك إلى التصحيح والتقويم، وفي حاجة إلى البصيرة والتبصير.

وكل ذلك لا يكون إلا بجهد الأمة ودعاتها الصادقين، وجنود الدعوة القائمين بها والمخلصين، وحماية هذه الدعوة وشبابها من أعدائها المنافقين والمتربصين.

إن هذه الدعوة التي نسعى إليها، ونؤمن بها، تحققت واقعاً عملياً، وحياة أمة، ومنهج حياة في عصر النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضي الله عنهم، وعلى هذا الخطى النبوي سار التابعون وتابعوهم، سائرون على منهاج النبوة، مستمسكون بحبل الكتاب والسنة، ونحن اليوم لا نجد بداً من سلوك هذا الطريق الذي سلكوا، والوقوف فيه حيث وقفوا.

لأن الله تعالى مكن لهم بهذا المنهاج، وأبدلهم بعد خوفهم أمناً، وأصبح لهم دولة وصولة، وفتحوا الدنيا بما جاءهم من النور والهدى، وصاروا أعزة فاتحين بهذا الدين. وقد جاء في الحديث"خيركم قرني ، ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم" فبين النبي صلى الله عليه وسلم أن خير قرون الأمة القرن الذي بعث فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم من جيل الصحابة رضي الله عنهم فقال: "خيركم قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم". وقال عبد الله بن مسعود: "إنكم قد أصبحتم اليوم على الفطرة، وإنكم ستُحدِثُون ويُحدَثُ لكم، فإذا رأيتم محدَثةً فعليكم بالعهد الأول". وقال الإمام مالك: "لم يكن شيء من هذه الأهواء، على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأبي بكر، وعمر، وعثمان".

نعم لا بد من هذا الطريق، لأنه على منهاج النبوة، ولأنهم صدر الأمة الذين صلح بهم أمر الدين، ولأن الأمة لا تمكن آخر الزمان إلا على هذا المنهاج منهاج النبوة كما جاء في الحديث: "ثم تكون خلافة على منهاج النبوة"، فكان ولا بد لنا من دعوة على منهج السلف الصالح.

يخطيء قوم حينما يعتقدون أن هذا المنهج ثوب أبيض قصير، وسواك في الفم، ولحية تعفى، وعبارات وألفاظ لا يتخطاها المسلم في كلامه، كلا، إن كل هذا مطلوب شرعاً، سواء أكان من الفرائض والواجبات، أم كان من السنن والمستحبات، ولكنه لا يعني أن المنهج قاصر على هذا فحسب. إن هذا الدين كبير وعظيم، أكبر من أن يحتويه عمل عامل، أو علم عالم، فلتكن نظرتنا صحيحة مستقيمة، إنما هو منهج حياة كامل، إن منهجنا عقيدة وعبادة، وأخلاق وتربية، وأقوال وأفعال، ودنيا وأخرى، ومعاملات وآداب، وسياسة واقتصاد.

والمتأمل في تاريخ الدعوة الإسلامية يرى أن منهج الصحابة رضي الله عنهم والتابعين قام حقيقة الأمر على تعظيم نصوص الوحيين القرآن والسنة، وكمال التسليم لهما. أما المخالفون لمنهجهم وطريقهم من أهل البدع والأهواء، فقد زلت أقدامهم، وضلت عقولهم في ذلك، فحرفوا، وغيروا، وبدلوا، وأولوا، ووقعوا في الفتنة والزيغ والضلال، فضلوا وأضلوا عن سواء السبيل.

وإن الحق والهدى والنجاة في متابعة ما كان عليه أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فإنهم كانوا على الهدى المستقيم، ولهذا جعلهم النبي صلى الله عليه وسلم الميزان الحق حين وقوع الفتن والافتراق في أمته كما جاء في الحديث المحفوظ المشهور حديث الافتراق الذي وقعت فيه الأمم، والذي يقول فيه النبي صلى الله عليه وسلم: "افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة، وافترقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة، وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة" قيل: من هي يا رسول الله؟ قال: "من كان على مثل ما أنا عليه وأصحابي".

وفي بعض الروايات: "هي الجماعة"، رواه أبو داود، والترمذي، وابن ماجه، والحاكم، وقال: صحيح على شرط مسلم. ومن هنا وقع كثير من الاختلاف والافتراق في كثير من الأحكام بسبب سوء الفهم للإسلام وتفرقت هذه الفرق هي الأخرى إلى فرق شتى، فكان من اللازم التصدي لهذه الفرق وبدعها التي أحدثتها في الإسلام.

ولقد وقف المنهج السلفي على طول التاريخ الإسلامي كله أمام كل هذه الفرق والمذاهب التي فارقت وخالفت الكتاب والسنة وما أجمع عليه الصحابة والتابعون، بدأً من الخوارج والقدرية والشيعة والمرجئة ومن سار على منوالهم، وقارع بعض الصحابة هؤلاء من أمثال عبد الله بن عباس وابن مسعود رضي الله عنهم جميعًا.

كما تصدى جاهدًا أمام العقل المعتزلي والفلسفي، وأصحاب التأويل والتعطيل، وبين فساد ما ذهبوا إليه وخالفوا فيه من الحق والسنن، وفي العصر الحديث اليوم وقف المنهج أيضًا بقوة وثقة ثابتة أمام التيارات والأفكار والمذاهب المحاربة للإسلام من الشيوعية الماركسية والعلمانية والاشتراكية وغيرها وما تولد منها.

وقف ليبين للناس معالم الطريق والتمكين، ومعالم الشريعة والدين، ومعالم الحضارة الإسلامية المثالية الأرقى، ولهذا لم يتوقف هؤلاء عن معاداته والتشهير به، والنيل منه، والكيد له ولأتباعه، ورميهم بالتخلف والجمود والرجعية والأصولية. أما اليوم فصار له دور كبير جديد، يضاف إلى دوره الأول من التصدي للمناهج المخالفة..

فلا من التصدي للمناهج والمذاهب والفرق التي خالفت منهج الكتاب والسنة وفهم السلف الصالح، مع بيان الحق في ذلك بأدلته الصحيحة، من فرق البعثية، والاشتراكية، والقومية، والقاديانية، والبهائية، وما سواها من الفرق والمذاهب، وما بقي على شعاره القديم كالشيعة، والرافضة، والنصيرية، والإسماعيلية، والخوارج ونحو ذلك.

ولا بد من العمل على إحياء الإسلام وفق منهج السلف الصالح وتصفية الإسلام وشريعته، مما علق به من المخالفات والأهواء والبدع ، إضافة إلى تشويه صورة الإسلام الصحيحة، وهذا ولا ريب دور كبير وجليل، وقف منه الاتجاه السلفي موقفاً حازماً، ولكن يحتاج إلى مزيد بيان ومنهجية، حتى تستبين معالم الطريق .

ولا بد من العمل على تأهيل الأمة الإسلامية لمرحلة الخلافة الراشدة، وإقامة دولة الإسلام التي توحد الأمة على تحكيم شريعة الكتاب والسنة الصافية وفق منهاج النبوة كما جاء في الحديث المحفوظ : "ثم تكون خلافة على منهاج النبوة". وهذه الخلافة الموعودة هي التمكين الرباني من الله تعالى لدينه وأوليائه في الأرض، وقيامهم بهذه الدعوة الإسلامية الصافية من جديد، وهذا لا يتأتى إلا ببذل النفوس والأموال والأوقات دونه، ولا يتأتى إلا بالتضحية الصادقة لهذا المنهج، ولا يتأتى إلا بعد أن يبدوا هذا المنهج صحيحًا واضحًا، اعتقادًا وقولاً، وفهمًا وعملاً، وفق منهاج الكتاب والسنة وما كان عليه السلف الصالح من صدر الإسلام الأول.

إنه طريق على بصيرة، بصيرة في كل ما لديه من مقومات ومبادئ، وبصيرة في عقائده وتشريعاته، وبصيرة في أخلاقه وعباداته، وبصيرة في حياته ومعاملته، وبصيرة في حربه وسلمه، وبصيرة في نومه ويقظته، وبصيرة في ولاءه وبراءه، وبصيرة في جميع شؤونه وتوجهاته، إنه طريق لا يعتريه النقص ولا الخلل، ولا يشوبه الأهواء والبدع، ولا تؤخره العقبات والمحن، إنما هو على بصيرة.

إن الوضوح في المنهج يعني: صحة العقيدة ومنهجها، وصحة العبادة وسلامتها، وصحة السلوك والأخلاق واستقامتها، فالعقيدة فيه واضحة لكل أحد، فلا تقديس ولا عبودية لأحد سوى الله تعالى، ولا شركاء في حكمه وشرعه، الذي هو أمره ونهيه، فهو الواحد المعبود صاحب الخلق والأمر قال تعالى: "أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ" [الأعراف:٥٤]، وقال سبحانه: "أَمْ لَهُمْ شُرَكَاء شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ" [الشورى:٢١]. والعبادة فيه واضحة، فلا ذبح ولا نذر، ولا قربان ولا تعبد، ولا شيئاً من ذلك إلا لمستحقه سبحانه: "قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَاْ أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ" [الأنعام:١٦٢-١٦٣].

وبعد: فقد استبشرت بانطلاق هذا الصرح الجديد خيرًا بإذن الله، فجواده قد وافق انطلاقته وميلاده شهر ميلاد النبي – صلى الله عليه وسلم – في ربيع الأول، وكذلك هجرته المباركة، في جملة أقوال أهل العلم والتأريخ، ولعل موافقة هذا من بشائر الخير والهدى..

خاتمة المسك

هذا منهاجنا وسبيلنا نقفوا فيه الأثر، ونتبع فيه الخبر، ونروي فيه الدروس والعبر، من تاريخ من غبر، لبصير قد جبر، ونستبصر به الهدى والرشاد، ونرجوا من الله العلي القدير التوفيق والسداد والرشاد للخيرات، ونفع المسلمين، وتقديم كل نافع من العلم والهداية والإيمان، كما جعلت بالمجلة في ثناياها من ثمار العلماء الأكابر، والكتاب والباحثين، لتعم الثمرة والمنفعة، ومن وجد خللًا أو خطأ غير مقصود فليبادر بالنصيحة والتوجيه البناء القيم، المبني على الستر والمحبة والمجلة ترحب بجميع الآراء بصدر رحب، وقلب محب، وتقبل الله صالح العمل.

من آيات ...

الاستخلاف والتمكين في القرآن

الشيخ: عاطف الفيومي

هذه تأمُّلات في رحاب آيات القرآن، وحديثها عن الاستخلاف والتمكين، وبيان السبيل إليهما، ومحاولة لاستنباط معالم السبيل الأمم إلي وعد الله تعالي للمؤمنين المتقين العاملين لنصر دينه وشريعته..

أولاً: ضرورة تأهيل الأمة لمرحلة الخلافة والتمكين:

المتأمِّل اليوم لواقع الأمة الإسلاميَّة عامة، وبعض الدول التي نالتْها الثورات والمظاهرات خاصة، وكذلك لواقع الدعوة الإسلامية عامة، والاتجاه السلفي خاصة، يرى بعين البصيرة حالة من الغبش والضبابية في كثير من المسائل والأمور، وقَع فيها كثير من الناس والشباب، ولا أبالغ حتى بعض الدعاة وطلاب العلم، وليس هذا بموضوعنا الآن.

ذلك أن الدعوة الإسلامية بمُجمَل اتِّجاهاتها تَبذُل الجُهد سالكة دروب المفاصلة مع التيارات والاتجاهات العَلْمانية والليبرالية، في معركةٍ عَقديَّة وأخلاقية كبيرة، لا انتهاء لها إلا أن يشاء الله بانتصار الحق والعدل والسُّنة، ولا ريب في هذا، ولكن هذه المعركة طويلة الأمد، وقد جعل الله – تعالى – لها سُنَنًا كونية وشرعية، والكونية تقع بأمره، والشرعية تقع بأمره مع اتِّخاذ الوسيلة المشروعة إليها؛ كما قال – تعالى –: (وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ) [الحج: ٤٠]، فنصْرُ الله لنا متعلِّق بنصرنا إياه لدينه وشريعته، وبذْل الأسباب الموصِّلة، وإعداد العُدة، كما قال – تعالى – أيضًا: (وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ) [الأنفال: ٦٠].

وتأهيل الأمة الإسلاميَّة لمرحلة القيادة والخلافة الإسلامية أمرٌ واجب على الأمة ودُعاتها وحَمَلة العلم فيها؛ لأن الخلافة أمر واقع لا محالة بموعود الله – تعالى – ورسوله – صلى الله عليه وسلم – ولكن في الوقت الذي يشاؤه الله تعالى، والذي يعلم فيه بعلمه أن الأمة تستحِقُّ أن تَسود العالم من جديد بمنهج الله وشريعته.

كما جاء عند الإمام أحمد عن النعمان بن بشير – رضي الله عنه –، قال: كنا جلوسًا في المسجد، فجاء أبو ثعلبة الخشني فقال: يا بشير بن سعد، أتحفَظُ حديث رسول الله – صلى الله عليه وسلم – في الأمراء، فقال حذيفة: أنا أحفَظ خُطبته، فجلس أبو ثعلبة، فقال حذيفة: قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم –: ((تكون النُّبوة فيكم ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها الله إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون خلافة على منهاج النبوَّة، فتكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها الله إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون مُلْكًا عاضًّا، فيكون ما شاء الله أن يكون، ثم يرفعها إذا شاء الله أن يرفعها، ثم تكون مُلْكًا جَبرية فتكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها الله إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة، ثم سكَت))، قال حبيب: فلما قام عمر بن عبدالعزيز، وكان يزيد بن النعمان بن بشير في صحابته، فكتبت إليه بهذا الحديث أذكِّره إياه، فقلت له: إني أرجو أن يكون أمير المؤمنين – يعني عمر– بعد المُلْك العاض والجبرية، فأُدخِل كتابي على عمر بن عبدالعزيز فَسُرَّ به وأعجَبه[١]، وللحديث شاهد عن سَفينةَ – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم –:

((الخلافةُ في أمتي ثلاثون سنةً، ثم مُلْك بعد ذلك))، ثم قال سفينة: أمسِكْ عليك خلافة أبي بكر، ثم قال: وخلافة عمر، وخلافة عثمان، ثم قال لي: أمسِكْ خلافة علي قال: فوجدناها ثلاثين سنة"؛ رواه أحمد وحسَّنه الأرناؤوط.

وروى الإمام أحمد عن حذيفة – رضي الله عنه – أنه قال: "ذهبتِ النُّبوة فكانت الخلافة على منهاج النبوة"، وصحَّحه الأرناؤوط، والذي عليه بعض من أهل العلم أن المُلْك الجبريَّ هو هذه الحِقبة الزمنية التي تمرُّ الأمة الإسلامية بها الآن، وإن الله – تعالى – سيهيِّئ للأمة الإسلامية طريقًا للعودة لهذه الخلافة الراشدة على مِنهاج النبوة الأولى.

ثانيًا: ماذا تعني الخلافة الإسلامية والتمكين؟

<u>الخلافة الإسلامية تعني:</u> التمكين للمؤمنين المُتَّبعين للكتاب والسُّنة، والسائرين على طريق الصحابة والسلف الصالح من بعدهم، التمكين لهم بأن يُقيموا العقائد والشعائر والشرائع التي أمر الله – تعالى – بها ورسوله في جميع مجالات الحياة البشرية، والتمكين لهم بالإعلان عن عبوديَّتهم لله وحده لا شريك له في حُكمه ولا في أمره، في حرية كاملة دون خوف من الطُّغاة أو الظالمين، أو وجَلٍ من أعداء الله المتربِّصين والمنافقين.

والتمكين لهم أن يَملِكوا زمام قيادة العالم من جديد كما كانوا في القرون الماضية، وأن يَفتحوا قلوب العالمين بنور هذا الدين الحق، ويفتحوا كنوز الأرض وخيراتها بالجهاد في سبيله وحده وإعلاء كلمة دينه، والتمكين لهم بأن يَحكموا الناس بشريعة الله، وأن يرفعوا ظُلْم الظالمين، وفساد المفسدين، وأن يُقيموا ميزان الحق والعدل بين الناس بما أنزل الله تعالى، وأن يَرفعوا عنهم الذُّل والمهانة التي طالما عاشوا فيها سنينَ طويلة، يَذِلون فيها لأعداء الله من اليهود والنصارى والمنافقين، ويحكُمون بقوانينِ الظُّلم والجَور بين العالمين.

إن الخلافة تعني الكثير والكثير من تحرير البشرية كلها من قبضة الطُّغاة والمنافقين، الذين يُحارِبون شريعة الله ومنهجه، وتحريرها من أن تَذِل لغير خالقها وموجِدها، وتعني أن تَستمِدَّ أحكامَها وشرائعها من مِنهاج ربها وشريعة الإسلام.

وهذه الخلافة قادمة لا محالة، ولكنها تأتي ببذل الجهود، وإعداد العُدة، وتطهير القلوب، وتزكية النفوس، واستعلاء الإيمان في قلوب أصحابه، إنها قادمة – بإذن الله – ولكن بالسُّنن التي تعمل في الكون، وليس بترك الدعوة والتخاذل عن نصرة الإسلام والمستضعفين في الأرض، فمن الواجب أن تتأهَّل أمة الإسلام لهذه الخلافة الراشدة التي طال انتظارُها لها. كما قال القائل[٢]:

قـــــالوا: الســـــعادة في الســـــكون	وفي الخمـــــــــول وفي الخمـــــــــود
في العـــــــيش بـــــــين الأهــــــل لا	عـــــــيش المهـــــــاجر والطريـــــــد
في المشـــــي خلـــــف الركـــــب في	دعـــــــة وفي خطــــــو وئيـــــــد
في أن تقـــــول كمـــــا يقـــــال	فـــــلا اعـــــــتراض ولا ردود
في أن تســـــير مـــــع القطيـــــع	وأن تقـــــــاد ولا تقـــــــود
في أن تصـــــيح لكـــــل وال:	عـــــاش عهـــــدكم المجيـــــد

قلــــت: الحيـــاة هـــي التحـــرك | لا الســـــــكون ولا الهمـــــود
وهـــي الجهـــاد، وهــل يجـــا | هــد مـــن تعلـــق بـــالقعود؟
وهــــي التلــــذذ بالمتاعــــب | لا التلـــــذذ بـــــالرقود
هــي أن تــذود عــن الحيــاض | وأي حــــر لا يــــذود؟
هــي أن تحــس بــأن كــأس | الــذل مــن مــاء صــديد
هــي أن تعــيش خليفــة | في الأرض شـــأنك أن تســود
وتقـــول: لا، ونعـــم، إذا مـــا | شـــئت في بصـــر حديـــد

ثالثًا: انحراف واستعجال:

ومن هنا فمجاهدة الباطل وأهله، وبذْل الجُهد وإعداد الأمَّة وجيل النصر والتمكين أمر لا بد من بذْله، والسعي له بكل مُتاح ومُباح. إلا أن لله سُننًا شرعية في هذا، لا يتوصَّل للنصر والتمكين إلا بها، وباستخراج الوُسْع فيها، وقد فصَّلها الله لنا ورسوله – صلى الله عليه وسلم – في الوحيين؛ الكتاب والسنَّة.

إلا أن فريقًا من الناس يستعجل النصر والتمكين بطبيعته البشرية "خلق الإنسان من عجل"، ويحاول أن يقطع أشواطًا وأسبابًا لا بد من كمالها، للوصول إلى مرامه وغايته، فيقع في الانحراف مرة، وفي التخبط والتلون أخرى، وفي الغفلة تارة، وضعف البصيرة تارة، وفي التأويل مرات ومرات، وهكذا يترنح الطريق ظانًا أنه في درب النجاة سالك، ولمعالم السنة والحق مالك، والأمر على حقيقته ليس كذلك.

إن الفطرة البشرية الحرة تأبى أن تتقوقع بعيدًا داخل صدفة من الخزف، أو جحر أو كهف في زاوية الجبل، إنما ترنوا دائمًا لعبير الحرية الرباني، الذي لا يقتل انطلاقتها نحو الحق والعدل، وهي على صراط مستقيم من أمرها ومنهجها، وجاء به الكتاب ناصعًا: " قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ". والصراط له سبيل واحد وجناحان، إخلاص واتباع؛ فالإخلاص إكسير الأعمال وجوهرها، والاتِّباع صِقال الأعمال وميزانها، وحيثما اختلَّ أحد الجناحين انحرَف السبيل، وصار يَهذي بغير دليل، وجاء النص بيِّنًا كرابعة النهار: ((من عمِل عملاً ليس عليه أمرنا فهو ردٌّ))؛ رواه مسلم.

وإن الاعتراف بأسباب النكوص والفَشَل عن النصر، وضَياع الكثير من شباب أمتنا لأمرٌ محمود؛ فقد أخرَج أبو داود – رحمه الله تعالى – في سُننه عن ابن عمر – رضي الله عنهما – قال: سمِعت رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يقول: ((إذا تَبايعتم بالعِينة، وأخذتم أذناب البقر، ورضيتم بالزَّرع، وتركتم الجهاد، سلَّط الله عليكم ذُلاًّ، لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم)).

وعن ابن عمر قال: كنا عند رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فقال: ((كيف أنتم إذا وقعت فيكم خَمسٌ، وأعوذ بالله أن تكون فيكم أو تُدركوهن؛ ما ظهَرت الفاحشة في قوم قط يُعمل بها فيهم علانية إلا ظهَر فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن في أسلافهم، وما منَع قوم الزكاة إلا مُنِعوا القَطْر من السماء، ولولا البهائم لم يُمطَروا، وما بخَس قومٌ المكيال والميزان إلا أُخِذوا بالسنين وشدة المؤنة وجَور السلطان، ولا حَكَم أمراؤهم بغير ما أنزَل الله إلا سلَّط عليهم عدوهم، فاستنقَذوا بعض ما في أيديهم، وما عطَّلوا كتاب الله وسُنة نبيه إلا جعل الله بأسَهم بينهم))؛ رواه البيهقي والحاكم، وصحَّحه الألباني.

وقال – تعالى –: (إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ) [الأنعام: ١٥٩].

وصدق القائل:

وكان البرُّ فعلاً دون قولٍ فصار البرُّ نُطقًا بالكلامِ

وقال الرصافي في ديوانه:

مَلأنا الجوَّ بالجَدل اصطِخابًا وكنا قبْلُ نَملؤه هُتافَا

وما زِلنا نَهيم بكـلِّ وادٍ مِن الأقوال نُرسِلها جُزافَا

وإن استعجال بوارق النصر بطريق متلوِّن مع كل موقف، أو بخفض الجناح للمنافقين وأذنابهم للوصول للمَرام – لأمرٌ فيه مُجازفة ولا ريب، قد لا توصِل لسبيل الكمال، ونشوة الانتصار على حقيقته، ومن هنا صدَع بها النبي – صلى الله عليه وسلم – لجيل الصحابة والتمكين الأول؛ فعن خباب بن الأرت قال: شكونا إلى النبي – صلى الله عليه وسلم – وهو متوسِّد بُردة في ظل الكعبة، وقد لقينا من المشركين شدةً فقلنا: ألا تدعو الله، فقعد وهو محمرٌّ وجهه، وقال: ((كان الرجل فيمن كان قبلكم يُحفَر له في الأرض، فيجعل فيه، فيجاء بمنشار فيوضَع فوق رأسه فيُشق باثنين فما يصُده ذلك عن دينه، وليُتمَّنَّ اللهُ هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله، أو الذئب على غنمه، ولكنكم تستعجِلون))؛ رواه البخاري.

وعلى الطريق صبَر نوح – عليه السلام – في قومه ألف سنة إلا خمسين عامًا، وصبَر هود وصالح وشعيب، وجاهَد إبراهيم الحنيف – عليهم السلام جميعًا – وأوذي موسى كثيرًا، وقتِل زكريا ويحيى، وكاد أن يُقتل عيسى لولا رفْعُ الله له، وصبَر سيد الأنام في مكة ثلاث عشرة سنة، دعوة ومجاهدة، وصبْر وتضحية، هو ومن معه، حتى جاء وعد الله بالنصر والتمكين.

رابعًا: بشائر القرآن بالاستخلاف والتمكين والظهور:

وقد نطَقت آيات القرآن بأن الاستخلاف في الأرض والتمكين والظهور، لا يكون إلا من الله تعالى، إما بالاصطفاء الرباني، وإما ثمرة للإيمان والعمل الصالح، وإما بالدلالة العامة، ودلالة الآيات في ذلك واضحة. منها قوله – تعالى –:

أ– (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ) [البقرة: ٣٠].

ب– (يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ) [ص: ٢٦].

ج– وقال – تعالى –: (وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ * وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ) [القصص: ٥– ٦].

د- وقال – تعالى –: (هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا) [الفتح: ٢٨].

هـ- (وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ) [النور: ٥٥].

و- (قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ) [الأعراف: ١٢٩].

إن الفطرة البشرية الحرة تأبى أن تتقوقع بعيداً داخل صدفة من الخزف، أو جحر أو كهف في زاوية الجبل، إنما ترنوا دائمًا لعبير الحرية الرباني

ز- (وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ) [الأعراف: ٦٩].

ح- (وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ) [الأعراف: ٧٤].

ط- (أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ) [النمل: ٦٢].

ي- (وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ) [الأنعام: ١٦٥].

ك- (هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا) [فاطر: ٣٩].

ل- (الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ) [الحج: ٤١].

م- (أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ) [الأنعام: ٦].

خامسًا: وقفة مع آيات الاستخلاف والتمكين:

ونحن إذا تأمَّلنا نصوص الوحيين الكتاب والسنة، لوقفنا على جملة من النصوص الشرعية الآنف ذكرها وغيرها، التي تبيِّن لنا معالِم السبيل، وتَخُطُّ للأمة المسلمة معالم الاستخلاف والنصر والتمكين، ولم تتركها لأهواء الناس وأذواقهم وعجلتهم. كما أنها تبيِّن أن المصلحة العليا للأمة تتمثَّل في تحقيق مناط العبودية لله والطاعة لرسوله – صلى الله عليه وسلم – بالسمع والطاعة، والاعتصام بمنهج إقامة التمكين للطائفة المؤمنة المنصورة في الأرض، وذلك بتحقيق مَناط التمكين الحق، المذكور في كتاب الله – تعالى – في قوله: (قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ * وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ * وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ) [النور: ٥٤ – ٥٦].

وليست تلك المصلحة التي تكون راجحة أو مرجوحة بتأويلات بحسَب غَلَبة الظن، أو كثرة العدد والتصويت لها في البرلمان أو المجلس التشريعي الأرضي، بالموافقة عليها أو بعَرْضها للاستفتاء الشعبي، ممن يَفْقه ومَن لا يَفقه. وهنا نقف على عدة أمور ونقاط مهمة:

أولاً: من أقوال أهل التفسير في معنى الاستخلاف والتمكين: وهنا نُشير إلى بعض من التأملات في الآيات السابقة، وعلى وجه أدق في بيان معنى الاستخلاف والتمكين والظهور، هذه المعالم الثلاثة التي دلَّت عليها النصوص دلالة واضحة، وأقوال أهل التفسير – لا ريب – فيها كشْفٌ عن مراد كلام الله تعالى. فمن ذلك ما يلي:

أ– قال ابن سعدي – رحمه الله – في معنى الاستخلاف والتمكين ووعد الله لأهل الإيمان بذلك: "هذا من وعوده الصادقة، التي شوهِد تأويلها ومَخبَرها، فإنه وعَد من قام بالإيمان والعمل الصالح من هذه الأمَّة، أن يستخلِفَهم في الأرض، ويكونوا هم الخلفاءَ فيها، المتصرِّفين في تدبيرها، وأنه يمكِّن لهم دينَهم الذي ارتضى لهم، وهو دين الإسلام، الذي فاق الأديان كلها، ارتضاه لهذه الأمة، لفضْلها وشرَفها ونعمته عليها، بأن يتمكَّنوا من إقامته، وإقامة شرائعه الظاهرة والباطنة، في أنفسهم وفي غيرهم، لكون غيرهم من أهل الأديان وسائر الكفار مغلوبين ذليلين، وأنه يُبدِّلهم من بعد خوفهم الذي كان الواحد منهم لا يتمكَّن من إظهار دينه، وما هو عليه إلا بأذى كثير من الكفار، وكون جماعة المسلمين قليلين جدًّا بالنسبة إلى غيرهم، وقد رماهم أهل الأرض عن قوس واحدة، وبغَوا لهم الغوائل".

وقال أيضًا – رحمه الله –: "فوعدهم اللهُ هذه الأمور وقت نزول الآية، وهي لم تُشاهِد الاستخلافَ في الأرض والتمكين فيها، والتمكين من إقامة الدين الإسلامي والأمن التام، بحيث يعبدون الله ولا يُشركون به شيئًا، ولا يخافون أحدًا إلا الله، فقام صدْرُ هذه الأمَّة، من الإيمان والعمل الصالح بما يَفوقون على غيرهم، فمكَّنهم من البلاد والعباد، وفتحت مشارق الأرض ومغاربها، وحصَل الأمن التام والتمكين التام، فهذا من آيات الله العجيبة الباهرة، ولا يزال الأمر إلى قيام الساعة، مهما قاموا بالإيمان والعمل الصالح، فلا بد أن يوجَد ما وعدهم الله، وإنما يسلِّط عليهم الكفار والمنافقين، ويُديلُهم في بعض الأحيان، بسبب إخلال المسلمين بالإيمان والعمل الصالح.

(وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ) التمكين والسلطنة التامة لكم يا معشر المسلمين، (فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ) الذين خرجوا عن طاعة الله، وفسَدوا، فلم يَصلُحوا لصالح، ولم يكن فيهم أهلية للخير؛ لأن الذي يترك الإيمان في حال عِزِّه وقهْره، وعدم وجود الأسباب المانِعة منه، يدل على فساد نيَّته، وخُبْث طويَّته؛ لأنه لا داعي له لترك الدين إلا ذلك، ودلَّت هذه الآية، أن الله قد مكَّن مَن قبلنا، واستخلَفهم في الأرض، كما قال موسى لقومه: (وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ) [الأعراف: ١٢٩]، وقال – تعالى –: (وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ * وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ) [القصص: ٥ –٦]؛ تيسير الكريم الرحمن للسعدي.

ب– وقال الشنقيطي – رحمه الله – في معنى الاستخلاف: "ذكر – جل وعلا – في هذه الآية الكريمة أنه وعَد الذين آمنوا وعمِلوا الصالحات من هذه الأمة ليستخلفنَّهم في الأرض؛ أي: ليجعلنهم خلفاء الأرض، الذين لهم السيطرة فيها، ونفوذ الكلمة، والآيات تدل على أنَّ طاعة الله بالإيمان به، والعمل الصالح سبب للقوّة والاستخلاف في الأرض ونفوذ الكلمة؛ كقوله – تعالى –: (وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ) [الأنفال: ٢٦].. الآية. وقوله – تعالى –: (وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ * الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ) [الحج: ٤٠–٤١]، وقوله – تعالى –: (إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ) [محمد: ٧] إلى غير ذلك من الآيات"؛ [أضواء البيان للشنقيطي].

ج– وقال ابن كثير – رحمه الله – في تفسيره للآية كلامًا جيدًا في بابه في بيان الاستخلاف، وكيف تحقَّق في أمة الصحابة، وكيف يتحقَّق فيمن بعدهم: "هذا وعْد من الله لرسوله – صلى الله عليه وسلم – بأنه سيجعل أمته خلفاء الأرض، أي: أئمةَ الناس والولاةَ عليهم، وبهم تَصلُح البلاد، وتَخضع لهم العباد، ولَيُبدلَنَّ بعد خوفهم من الناس أمنًا وحُكْمًا فيهم، وقد فعَل – تبارك وتعالى – ذلك، وله الحمد والمنة، فإنه لم يَمت رسول

الله – صلى الله عليه وسلم – حتى فتَح الله عليه مكة وخَيْبَرَ والبحرين، وسائر جزيرة العرب وأرض اليمن بكمالها. وأخذ الجزية من مَجُوس هَجَر، ومن بعض أطراف الشام، وهاداه هرقلُ ملك الروم وصاحب مصر والإسكندرية – وهو المقوقس – وملوك عمان والنجاشي ملك الحبشة، الذي تَملَّك بعد أصْحَمة، رحمه الله وأكرَمه".

قال ابن كثير – رحمه الله –: "ثم لما مات رسولُ الله – صلى الله عليه وسلم – واختار الله له ما عنده من الكرامة، قام بالأمر بعده خليفته أبو بكر الصديق، فَلَمَّ شَعث ما وَهَى عند موته – عليه الصلاة والسلام – وأطَّدَ جزيرة العرب ومهَّدها، وبعَث الجيوش الإسلامية إلى بلاد فارس صحبة خالد بن الوليد – رضي الله عنه – ففتَحوا طرفًا منها، وقتلوا خَلْقًا من أهلها. وجيشًا آخر صحبة أبي عبيدة – رضي الله عنه – ومن معه من الأمراء إلى أرض الشام، وثالثًا صحبة عمرو بن العاص – رضي الله عنه – إلى بلاد مصر، ففتَح الله للجيش الشامي في أيامه بُصرى ودمشق ومَخَاليفهما من بلاد حَوران وما والاها، وتوفَّاه الله – عز وجل – واختار له ما عنده من الكرامة. ومَنَّ على الإسلام وأهله بأن ألْهَم الصِّدِّيق أن استخلَف عمر الفاروق، فقام في الأمر بعده قيامًا تامًّا، لم يَدُرِ الفَلَك بعد الأنبياء – عليهم السلام – على مِثْله، في قوة سيرته وكمال عدْله، وتَم في أيامه فتح البلاد الشامية بكمالها، وديار مصر إلى آخرها، وأكثر إقليم فارس، وكَسَّر كسرى وأهانه غاية الهوان، وتقهقر إلى أقصى مملكته، وقَصَّر قيصر، وانتزع يده عن بلاد الشام فانحاز إلى قسطنطينة، وأنفَق أموالهما في سبيل الله، كما أخبر.. إلخ".

ثم قال ابن كثير – رحمه الله –: "ولهذا ثبَت في الصحيح عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أنه قال: ((إن الله زَوَى لي الأرض، فرأيت مشارقها ومغاربها، وسيبلُغ مُلْك أمتي ما زُوي لي منها))، فها نحن نتقلَّب فيما وعَدنا الله ورسوله، وصدَق الله ورسوله، فنسأل الله الإيمان به، وبرسوله، والقيام بشكره على الوجه الذي يُرضيه عنا"؛ [تفسير القرآن العظيم لابن كثير].

د – وقال القرطبي – رحمه الله –: "وقولُه: (كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ) [النور: ٥٥] يعني بني إسرائيل؛ إذ أهلَكَ الله الجبابرة بمصر، وأورَثَهم أرضهم وديارهم فقال (وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا) [الأعراف: ١٣٧]. وهكذا كان الصحابة مُستضعَفين خائفين، ثم إن الله – تعالى – أمَّنهم ومكَّنهم وملَّكهم، فصَحَّ أن الآية عامة لأمة محمد – صلى الله عليه وسلم – غير مخصوصة؛ إذ التخصيص لا يكون إلا بخبر ممن يجب له التسليم، ومن الأصل المعلوم التمسك بالعموم. وجاء في معنى تبديل خوْفهم بالأمن أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – لما قال أصحابه: أما يأتي علينا يوم نأمن فيه ونضع السلاح؟ فقال – عليه السلام–: ((لا تلبثون إلا قليلاً حتى يجلس الرجلُ منكم في الملأ العظيم مُحتبيًا ليس عليه حديدة)). وقال – صلى الله عليه وسلم –: ((والله ليُتمَّن اللهُ هذا الأمر حتى يسيرَ الراكبُ من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئبَ على غنمه، ولكنكم تستعجِلون))؛ خرَّجه مسلم في صحيحه، فكان كما أخبَرَ – صلى الله عليه وسلم – فالآية معجزة النبوة؛ لأنها إخبار عما سيكون فكان"؛ [الجامع لأحكام القرآن للقرطبي].

هـ– وقال أبو الطيب محمد صديق خان القنوجي في "فتح البيان في مقاصِد القرآن"، في معنى الاستخلاف وعموم الوَعْد به من الله لعباده: (لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ) بدلاً عن الكفار، وهو وعْد يَعُم جميع الأمة، وقيل هو خاص بالصحابة، ولا وجْه لذلك؛ فإن الإيمان وعمل الصالحات لا يَختصُّ بهم، بل يمكن وقوع ذلك من كل واحد من هذه الأمة، ومَن عمِل بكتاب الله وسنة رسوله فقد أطاع الله ورسوله، واللام في (ليستخلفنَّهم) جواب لقَسَمٍ محذوف أو جواب للوعد، وتنزيله منزلة القسم؛ لأنه ناجز لا محالة، والمعنى: ليجعلنَّهم فيها خلفاء يتصرَّفون فيها تصرُّف الملوك في مملوكاتهم، وقد أبْعَد من قال: إنها مختصَّة بالخلفاء الأربعة، أو بالمهاجرين، أو أن المراد بالأرض أرض مكة، وقد عرَفت أن الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب"؛ [فتح البيان للقنوجي].

ثانيًا: دلالة الآيات على طريق التمكين والاستِخلاف وصفات أهله: الخلاصة من ذلك أن الآيات الكريمة دلَّت جملة على عدة أمور، منها:

الأول: تحقيق الإيمان والتوحيد الخالص: ذلك أن تحقيق التمكين الموعود إنما هو بتحقيق الإيمان والتوحيد الخالِص، الصافي من كل شِرك في العبودية مع الله – تعالى – من الأنداد والأضداد، قال ابن سعدي – رحمه الله –: "بل حقيقة الإيمان أن يعرف الربَّ الذي يؤمن به، ويبذُل جُهده في معرفة أسمائه وصفاته، حتى يبلغ درجة اليقين، وبحسب معرفته بربه يكون إيمانه، فكلما ازداد معرفةً بربه ازداد إيمانُه، وكلما نقَص نقص، وأقرب طريق يوصله إلى ذلك، تدبُّر صفاته وأسمائه من القرآن، والطريق في ذلك إذا مرَّ به اسم من أسماء الله، أثبَت له ذلك المعنى وكمالَه وعمومه، ونزَّهه عما يُضادُّ ذلك". وقال أيضًا: "حقيقة الإيمان: هو التصديق التام بما أخبرتْ به الرُّسل، المُتضمِّن لانقياد الجوارح".

الثاني: تحقيق الطاعة المطلَقة لله ورسوله وتحقيق العبودية: وكذلك تحقيق الطاعة المطلَقة لله ورسوله في كل كبير وصغير من شؤوننا، وعدم الإعراض والتولي، وأيضًا تحقيق العبودية بإقامة الصلاة والعبادة، وإيتاء الزكاة والصدقة في حال قبل التمكين، وبعده لدوام استمراريته. قال الله – تعالى –: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [النساء: ٦٥]، وقال – تعالى –: ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [النور: ٥١]. وقد جاء في الحديث عن أبي هريرة – رضي الله عنه – أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال: ((كلُّ أمتي يدخلون الجنة إلا مَن أَبَى))، قيل: ومن يأْبى يا رسول الله؟ قال: ((من أطاعني دخل الجنَّة، ومن عصاني فقد أبى))؛ رواه البخاري.

وعن أبي نَجِيح العِرباض بن سارية – رضي الله عنه – قال: وعَظَنا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – موعظةً بليغةً وجِلَت منها القلوب وذَرَفت منها العيون، فقلنا: يا رسول الله، كأنها موعظة مودِّعٍ فأَوصِنا، قال: ((أوصيكم بتقوى الله، والسمع والطاعة، وإن تأمَّر عليكم عبدٌ حبشي، وإنه من يَعِش منكم فسيرى اختلافًا كثيرًا، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، عَضُّوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومُحدَثاتِ الأمور؛ فإن كل بدعةٍ ضلالةٌ))؛ رواه أبو داود، والترمذي وقال: حديث حسن صحيح.

الثالث: تحقيق العمل الصالح: وأيضًا بتحقيق العمل الصالح النافع للأمة والجماهير الغفيرة المحتاجة، من عمِل الخيرات، وإخراج الزكوات والصدقات، وقيام الجمعيات الخيرة والخيرية في الأحياء والمساجد، لنفْع الفقراء والمساكين وذوي الحاجات والأمراض. والعمل الصالح واسع وشامل لكل الواجبات الشرعية والمستحبَّات، من حقِّ الله ورسوله، وحق عباده، قال الطبري – رحمه الله – في تفسيره: "يقول – تعالى ذكره –: ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ [النور: ٥٥] بالله ورسوله، ﴿ مِنْكُمْ ﴾، أيها الناس، ﴿ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ يقول: وأطاعوا اللهَ ورسوله فيما أمَراه ونَهياه".

وطُرُق العمل الصالح كثيرة؛ فعن جابر – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم –: ((كلُّ معروفٍ صدقةٌ))؛ رواه البخاري، ورواه مسلم من رواية حذيفة – رضي الله عنه. وعنه قال: قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم –: ((ما من مسلمٍ يَغرِس غرسًا إلا كان ما أكَل منه له صدقةً، وما سُرِق منه له صدقة، ولا يرزؤه أحدٌ إلا كان له صدقةً))؛ رواه مسلم. وعن أبي ذرٍ جندب بن جنادة – رضي الله عنه – قال: قلت: يا رسول الله، أي الأعمال أفضل؟ قال: ((الإيمان بالله، والجهاد في سبيله))، قلت: أي الرِّقاب أفضل ؟ قال: ((أنفَسها عند أهلها، وأكثرها ثمنًا))، قلت: فإن لم أفعل؟ قال: ((تُعينُ صانعًا أو تَصنع لأخْرقَ))، قلت: يا رسول الله، أرأيت إن ضَعُفتُ عن بعض العمل؟ قال: ((تَكُفُّ شرَّك عن الناس؛ فإنها صدقةٌ منك على نفسك))؛ متفقٌ عليه.

وقال صاحب "أضواء البيان" – رحمه الله –: "اعلم أولاً – أن القرآن العظيم دلَّ على أن العمل الصالح هو ما استكْمَل ثلاثة أمور:

الأول: موافقته لما جاء به النَّبي – صلى الله عليه وسلم – لأن الله يقول: (وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا) [الحشر: ٧].

الثاني – أن يكون خالِصًا لله تعالى؛ لأن الله – جل وعلا – يقول: (وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ) [البينة: ٥]، (قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي * فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ) [الزمر: ١٤– ١٥].

الثالث – أن يكون مبنيًّا على أساس العقيدة الصحيحة؛ لأن الله يقول: (مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ) فقيَّد ذلك بالإيمان، ومفهوم مخالفته أنه لو كان غير مؤمن لما قُبِل منه ذلك العلم الصالح. وقد أوضح – جل وعلا – هذا المفهوم في آيات كثيرة؛ كقوله في عمَل غير المؤمن: (وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا) [الفرقان: ٢٣]، وقوله: (أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) [هود: ١٦]، وقوله: (أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ) [النور: ٣٩]... الآية، وقوله: (أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ) [إبراهيم: ١٨]، إلى غير ذلك من الآيات"؛ [أضواء البيان للشنقيطي].

الرابع: وقوع التمكين في عصر النبوة: إنَّ وعْد التمكين والنصر قد تحقَّق للنبي – صلى الله عليه وسلم – في حياته، وكذا للصحابة الأكارم – رضي الله عنهم – وحقَّق الله لهم الفتح الأوسع في البلاد بعد وفاة النبي – صلى الله عليه وسلم – وأمَّن الناس، ونَشَر الحق والعدل، وعمَّ الخير بلاد المسلمين، وازداد الفتح الإسلامي على أيدي الصحابة والفاتحين منهم، ثم التابعين.

الخامس: استمرارية وقوع التمكين إلى قيام الساعة: إن الوعد المذكور بالتمكين، يتحقَّق بموعود الله – تعالى – في كل الأمة إلى قيام الساعة، ما أقامت التوحيد والإيمان الحق، وعمِلت الصالحات والخيرات، وقد بيَّنا قول الإمام ابن كثير وغيره من أهل التفسير في بيان ذلك، وكون هذا التمكين والاستخلاف متحقِّقًا بطاعة الله ورسوله – صلى الله عليه وسلم. وقد جاء في الحديث واضحًا جليًّا: ((لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يَضرُّهم من خذَلهم حتى يأتي أمرُ الله وهم كذلك))؛ رواه مسلم وغيره.

السادس: غاية التمكين تعبيد الناس لربهم: ذلك أن غاية التمكين والاستخلاف، هي تعبيد الناس لربهم – تعالى – في حُكْمه وأمره، وتحقيق العبودية منوط بتحقيق العقيدة والتوحيد، وإقامة العبادة من الصلاة والزكاة وطاعة الرسول في أمْره ونَهيه وغيرها؛ كما قال – تعالى –: (يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ * وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ) [النور: ٥٥، ٥٦].

وجملة دلالة الآيات أنها تَدلُّ على وجوب تكوين الجماعة المؤمنة التي تَجتمِع فيها تلك الصفات العالية والمنابع الصافية، من تحقيق الإيمان والتوحيد، والطاعة لله والرسول، والعمل الصالح، ولا نعني بها فريقًا أو حزبًا؛ فقد علِمنا من النصوص ما يدل على بُطلانها وانحرافها في الغالب، إنما نعني تربية الجيل المؤمن الذي يكون هو جيل النصر والاستخلاف الموعود والتمكين، الجيل الذي لا يعطي ولاءه لغير الله ورسوله وشريعته، ولا يتحزَّب أو يتفرَّق مع سُبُل أهل الأهواء والبدع، وحسْبنا من كتاب الله بيان صفات الجماعة المؤمنة، الثابتة بمنهجها على طول الطريق، وهي في قوله – تعالى –: (وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ) [العصر: ١ – ٣]. ولهذا وجَب العملُ والسعي لتحقيق النصر والتمكين الموعود، بما أمَر الله – تعالى – به، والقيام بذلك على أكمل الوجوه وأحسَنِها.

ثالثًا: وجود مؤهِّلات وشروط أخرى للاستخلاف والتمكين: هناك أيضًا شروط ومؤهِّلات أخرى لتحقيق كونيَّة الاستخلاف والتمكين للأمة في عدد من النصوص الشرعية من الكتاب والسنة أشرنا إليها آنفًا. منها: تحقيق الصبر، وتحقُّق اليقين لقوله – تعالى –: (وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ) [السجدة: ٢٤].

رابعًا: مقومات استمراريَّة التمكين في الأمة: ذَكَر الله – تعالى – في كتابه مقومات وجود الاستخلاف والتمكين في الأمة المسلمة، وعوامل بقائه واستمراريته فيها في قوله – تعالى –: (الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ) [الحج: ٤١]. قال الشنقيطي – رحمه الله –: "دليل على أنه لا وعْد من الله بالنصر، إلا مع إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر؛ فالذين يمكِّن الله لهم في الأرض ويجعل الكلمة فيها والسلطان لهم، ومع ذلك لا يُقيمون الصلاة ولا يؤتون الزكاة، ولا يأمرون بالمعروف، ولا ينهَون عن المنكر – فليس لهم وعْد من الله بالنصر؛ لأنهم ليسوا من حزبه، ولا من أوليائه الذين وعَدهم بالنصر، بل هم حزب الشيطان وأولياؤه، فلو طلبوا النصر من الله بناءً على أنه وعدهم إياه، فمَثلهم كمَثل الأجير الذي يمتنِع من عَمَل ما أُجِر عليه، ثم يَطلُب الأجرة، ومَن هذا شأنه فلا عقل له"؛ [أضواء البيان للشنقيطي].

وقال ابن سعدي – رحمه الله –: "(الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ)؛ أي: ملَّكناهم إياها، وجعلناهم المُتسلِّطين عليها، من غير منازِع يُنازِعهم، ولا معارِض، (أَقَامُوا الصَّلَاةَ) في أوقاتها، وحدودها، وأركانها، وشروطها، في الجمعة والجماعات. (وَآتَوُا الزَّكَاةَ) التي عليهم خصوصًا، وعلى رعيتهم عمومًا، آتَوْها أهلها، الذين هم أهلها، (وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ)، وهذا يشمَل كل معروف حسنه شرعًا وعقلاً من حقوق الله، وحقوق الآدميين.

(وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ) كل منكر شرعًا وعقلاً معروف قُبْحه، والأمر بالشيء والنهي عنه يدخل فيه ما لا يتم إلا به، فإذا كان المعروف والمنكر يتوقَّف على تَعلُّم وتعليم، أجبَروا الناس على التعلُّم والتعليم، وإذا كان يتوقَّف على تأديب مقدَّر شرعًا، أو غير مقدَّر، كأنواع التعزير، قاموا بذلك، وإذا كان يتوقف على جعل أناس متصدِّين له، لَزِم ذلك، ونحو ذلك مما لا يتم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلا به. (وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ) أي: جميع الأمور، تَرجِع إلى الله، وقد أخبر أن العاقبة للتقوى، فمَن سلَّطه الله على العباد من الملوك، وقام بأمر الله، كانت له العاقبة الحميدة، والحالة الرشيدة، ومَن تسلَّط عليهم بالجبروت، وأقام فيهم هوى نفسه، فإنه وإن حصَل له مُلْك موقَّت، فإن عاقِبتَه غير حميدة، فولايته مشؤومة، وعاقبته مذمومة"؛ [تفسير ابن سعدي، تفسير سورة الحج].

---

[١] ورواه أبو داود الطيالسي والبيهقي في منهاج النبوة، والطبري، وحسَّنه الأرناؤوط، وصحَّحه الألباني.

[٢] من كلمات د. يوسف القرضاوي.

وإن استعجال بوارق النصر بطريق متلوِّن مع كل موقف، أو بخفض الجناح للمنافقين وأذنابهم للوصول للمَرام - لأمرٌ فيه مُجازفة ولا ريب، قد لا توصِل لسبيل الكمال، ونشوة الانتصار على حقيقته، ومن هنا صدَع بها النبي - صلى الله عليه وسلم - لجيل الصحابة والتمكين الأول؛

إفشاء السلام

من شعائر الإسلام

الشيخ: عاطف الفيومي

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، نبينا محمد – صلى الله عليه وسلم – ، وبعد: فإن إفشاء السلام معلم شرعي من شرائع الإسلام، ورابط إيماني من روابط الإيمان، وواجب اجتماعي من حقوق المسلمين على بعضهم، وفيه من الخير والحسنات ما جعله الشرع طريقًا إلى رضوان الله وجنته، وقد دلت على ذلك كثير من نصوص الوحيين الكتاب والسنة،كما أن إفشاء السلام من آداب الطريق الجلية التي تربط المسلم بأخيه المسلم، وتصير الناس كأنهم أمة واحدة يعرف بعضهم بعضاً ويحب بعضهم بعضاً. وهنا أمور مهمة في باب إفشاء السلام لا بد من الإشارة إليها:

أولًا: الأمر بإفشاء السلام وبيان فضله: لقد أمر الله تعالى في كتابه بإفشاء السلام، وحث عليه، ورغب فيه، كما قال تعالى: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَدخُلُوا بُيُوتاً غيرَ بُيُوتِكُم حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلى أَهْلِهَا" [النور: ٢٧]. وقال تعالى: "فإذا دَخَلْتُمْ بُيُوتاً فَسَلِّمُوا عَلى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً" [النور: ٦١]. وقال تعالى: "وَإذا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنها أَوْ رُدُّوها" [النساء: ٨٦]. وقال تعالى: "هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ، إذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فقالوا: سَلاماً، قال: سَلامٌ" [الذاريات: ٢٤، ٢٥].

كما جعل النبي – صلى الله عليه وسلم – إفشاء السلام من علامات الخيرية في إسلام العبد، كما جاء عن عبد الله بن عمرو بن العاص – رضي الله عنهما – أن رجلاً سأل رسول الله – صلى الله عليه وسلم –: أي الإسلام خيرٌ؟ قال: "تطعم الطعام، وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف". متفقٌ عليه.

كما جعل إفشاء السلام حق من حقوق المسلم على أخيه المسلم إذا لقيه، كما جاء عن عن أبي عمارة البراء بن عازب – رضي الله عنهما – قال: أمرنا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بسبعٍ: بعيادة المريض، واتباع الجنائز، وتشميت العاطس، ونصر الضعيف، وعون المظلوم، وإفشاء السلام، وإبرار المقسم. متفق عليه

كما أن إفشاء السلام طريق للمحبة والتآلف بين أفراد المجتمع المسلم، ونزع العداوات من القلوب، وعلامة على صحة إيمانه وتماسكه، كما جاء في الحديث عن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم –: "لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أولا أدلكم على شيءٍ إذا فعلتموه تحاببتم ؟ أفشوا السلام بينكم".

رواه مسلم.

كما أن إفشاء السلام من أقرب الطرق الموصلة إلى جنة الله تعالى في الآخرة ورضوانه، كما جاء في الحديث عن عبد الله بن سلامٍ – رضي الله عنه – قال: سمعت رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يقول: "يا أيها الناس أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلوا الأرحام، وصلوا والناس نيامٌ، تدخلوا الجنة بسلامٍ". رواه الترمذي وقال: حديثٌ حسنٌ صحيحٌ.

كما أن إفشاء السلام فيه غيظ لأهل الكتاب من اليهود والنصارى، وتعظيم لشعائر الإسلام بإظهارها، كما في الحديث عن عائشة – رضي الله عنها – عن النبي – صلى الله عليه وسلم – قال: "ما حسدتكم اليهود على شيء؛ ما حسدتكم على السلام والتأمين". رواه ابن ماجه بإسناد صحيح وابن خزيمة وأحمد.

فالسلام إذًا شعيرة جليلة، نسارع إليها، ونلهج بها في شوارعنا وطرقاتنا، وكيف لا والله تعالى سمى نفسه السلام كما قال تعالى: "هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ" [الحشر: ٢٣]. وكيف لا والجنة هي دار السلام كما قال تعالى: "لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ" [الأنعام: ١٢٧]. وكيف لا وتحية الله لأوليائه في الآخرة هي السلام كما قال تعالى: "تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا" [الأحزاب: ٤٤].

وكيف لا وتحية أهل الجنة والملائكة فيها هي السلام كما قال تعالى: "دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ" [يونس: ١٠]."وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ * سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ" [الرعد: ٢٣، ٢٤].

وكيف لا والملائكة الكرام تتلقى المتقين عند الموت بالسلام كما قال تعالى: "الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ" [النحل: ٣٢]. ولهذا من الواجب على المجتمع المسلم وأفراده المحافظة على إحياء هذه الشعيرة في النفوس، وتذكير الناس بها، حتى لا تندثر من أخلاق المسلمين وشوارعهم.

ثانيًا: كيفية السلام وآدابه: وقد شرع الإسلام لشعيرة إفشاء السلام صيغة معينة، وآدابًا جليلة، فمن ذلك:

أن تحية الإسلام هي السلام، بأن يقول المسلم للمسلم إذا لقيه: "السلام عليكم ورحمة الله وبركاته"، ورتب عليها الأجر والثواب الحسن عند الله تعالى، قال الإمام النووي رحمه الله تعالى: "يستحب أن يقول المبتديء بالسلام: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. فيأتي بضمير الجمع، وإن كان المسلم عليه واحداً، ويقول المجيب: وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته. فيأتي بواو العطف في قوله: وعليكم".

وقد دل على ذلك ما جاء عن عمران بن الحصين – رضي الله عنهما – قال: جاء رجلٌ إلى النبي – صلى الله عليه وسلم – فقال: السلام عليكم، فرد عليه ثم جلس، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "عشرٌ" ثم جاء آخر، فقال: السلام عليكم ورحمة الله، فرد عليه فجلس، فقال: "عشرون" ثم جاء آخر، فقال: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، فرد عليه فجلس، فقال: "ثلاثون". رواه أبو داود والترمذي وقال: حديث حسن.

وعن أبي جري الهجيمي – رضي الله عنه – قال: أتيت رسول الله – صلى الله عليه وسلم –، فقلت: عليك السلام يا رسول الله. قال: "لا تقل عليك السلام، فإن عليك السلام تحية الموتى". رواه أبو داود، والترمذي وقال: حديث حسن صحيح

فهذه التحية جاء بها الإسلام تفرداً وتميزاً عن تحايا الجاهلية التي كان العرب يستعملونها، فيقولون: عم صباحاً أو عم مساء أو صباح الخير ومساء الخير وما أشبه ذلك، ولا يزال عند بعض الناس شيئاً منها إلى اليوم، أو تقليداً لغير المسلمين من الغرب أو الشرق، ويتكلمون بغير لغة

العرب ولغة المسلمين، ولهذا لا ينبغي أن نستبدلها بغيرها لأنها من الله السلام ،وهي تحية الأنبياء والمرسلين، كما أنها تحية أهل الجنة في يوم يفوزون فيه بالنعيم المقيم، فيكف نستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير، ونسير في ركب التقليد الأعمى بلا علم ولا هدىً ولا بصيرة.

ومن آدابه كذلك: ألا نقصر فيها لأننا نرى بعض إخواننا لا يلقون السلام إلا معرفة فحسب فإن عرف الرجل ألقى عليه السلام، وإلا فلا يسلم عليه، وهذا عيب وخلل في المجتمع المسلم لأن النبي – صلى الله عليه وسلم – أمر أن نسلم على من نعرف ومن لا نعرف من المسلمين، لكن لا نسلم على أهل الكتاب ولا نبدأ بذلك معهم، لأنه خلاف النهي عن السلام على أهل الكتاب الذي أمر به النبي – صلى الله عليه وسلم – : "لا تبدؤوا أهل الكتاب بالسلام"، ولأن للمسلم من الحق ما ليس لغيره.

ومن آدابه كذلك: ما جاء عن أبي هريرة – رضي الله عنه – أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال: "يسلم الراكب على الماشي، والماشي على القاعد، والقليل على الكثير" متفقٌ عليه. وفي روايةٍ للبخاري: والصغير على الكبير.

ومن آدابه كذلك: ما رواه الترمذي عن أبي أمامة – رضي الله عنه –: قيل: يا رسول الله، الرجلان يلتقيان، أيهما يبدأ بالسلام ؟ قال: "أولاهما بالله تعالى". قال الترمذي: هذا حديثٌ حسنٌ.

ومن آدابه كذلك: استحباب تكرار السلام وإعادته كما كان فعل النبي – صلى الله عليه وسلم – ففي الحديث عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال: "إذا لقي أحدكم أخاه، فليسلم عليه، فإن حالت بينهما شجرةٌ، أو جدارٌ، أو حجرٌ، ثم لقيه، فليسلم عليه".واه أبو داود.

وعن أنسٍ – رضي الله عنه – أن النبي – صلى الله عليه وسلم –: إذا تكلم بكلمةٍ أعادها ثلاثاً حتى تفهم عنه، وإذا أتى على قومٍ فسلم عليهم سلم عليهم ثلاثاً. رواه البخاري. قال النووي رحمه الله: "وهذا محمولٌ على ما إذا كان الجمع كثيراً".

ومن آدابه كذلك: جواز السلام على الصبيان إذا لقيهم المسلم، كما جاء في الحديث عن أنس – رضي الله عنه – أنه مر على صبيانٍ، فسلم عليهم، وقال: كان رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يفعله. متفقٌ عليه.

ومن آدابه كذلك: كما قال النووي رحمه الله استحباب السلام إذا قام من المجلس فارق جلساءه أو جليسه عن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم –: "إذا انتهى أحدكم إلى المجلس فليسلم، فإذا أراد أن يقوم فليسلم، فليست الأولى بأحق من الآخرة". رواه أبو داود، والترمذي وقال: حديث حسن.

ومن آدابه كذلك: السلام إذا دخل المرء بيته، أو بيت غيره، كما قال تعالى: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَدخُلُوا بُيُوتاً غيرَ بُيُوتِكُم حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلى أَهْلِهَا" [النور: ٢٧]. وقال تعالى: "فإذا دَخَلْتُمْ بُيُوتاً فَسَلِّمُوا عَلى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً" [النور: ٦١].

إذًا من الواجب علينا أن نعلم أن شعيرة السلام، إنما شرعت لربط الأمة الإسلامية ببعضها فهي روح تسري فيها ليعم سلامها وأمنها على من حولهم من الأمم ، وإلا فالإسلام ليس فيه ما يشرع لغير حكمة ولا غاية،وأجل الحكم وأفضلها على الإطلاق حسن السمع والطاعة لله ورسوله.

❊ ❊ ❊

كما أن إفشاء السلام طريق للمحبة والتآلف بين أفراد المجتمع المسلم، ونزع العداوات من القلوب، وعلامة على صحة إيمانه وتماسكه، كما جاء في الحديث عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم -: "لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أولا أدلكم على شيءٍ إذا فعلتموه تحاببتم ؟ أفشوا السلام بينكم" ، رواه مسلم.

كيف نستفيد من الكتب الحديثية الستة؟

للشيخ العلامة: عبد المحسن بن حمد العباد البدر

الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلاّ الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، فبلغ الرسالة، وأدّى الأمانة، ونصح الأمة، اللهم صل وسلم وبارك على عبدك ورسولك نبينا محمد وعلى آله وأصحابه، ومن سلك سبيله واهتدى بهداه إلى يوم الدّين. أما بعد: فهذه لمحات يسيرة في الاستفادة من كتب الحديث الستة وهي، صحيح البخاري، وصحيح مسلم، وسنن أبي داود، وسنن النسائي، وجامع الترمذي وسنن ابن ماجة. فأقول: إن أعظم نعمة أنعم الله تعالى بها على أمة محمد صلى الله عليه وسلم أن بعث فيها رسوله الكريم محمداً عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم، ليُخرجهم به من الظلمات إلى النور، فقام بهذه المهمة خير قيام، وأدّى ما أرسله الله تعالى به على التمام والكمال، فما ترك خيراً إلاّ دلّ الأمة عليه ورغبها فيه، وما ترك شراً إلاّ حذّرها منه ونهاها عنه، صلوات الله وسلامه وبركاته عليه.

وكان التوفيق حليف صحابته الكرام رضي الله تعالى عنهم وأرضاهم، إذ اختارهم الله تعالى لصحبته، وشرّف أبصارهم في الحياة الدنيا بالنّظر إلى طلعته، ومتّع أسماعهم بسماع حديثه الشريف من فمه الشريف صلوات الله وسلامه عليه، فتلقّوا عنه القرآن، وكل ما صدر عنه صلى الله عليه وسلم من قول أو فعل أو تقرير، وأدّوه إلى من بعدهم على التمام والكمال، فصاروا بذلك أسبق الناس إلى كل خير، وأفضل هذه الأمة التي هي خير الأمم. ثم بعد أن انقرض عصر الصحابة بدأ تدوين الحديث وجمعه بأسانيده إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتتابع التأليف في تدوين السنة حتى جاءت المائة الثالثة التي ازدهر فيها التأليف، وكان من أهم المؤلفات التي أُلّفت في السنة على الإطلاق، صحيح الإمام أبي عبد الله محمد ابن إسماعيل البخاري رحمه الله، المولود سنة (١٩٤ هـ) والمتوفى سنة (٢٥٦هـ)، وصحيح الإمام أبي الحسين مسلم بن الحجاج النيسابوري، المولود سنة (٢٠٤هـ)- وهي السنة التي توفي فيها الإمام الشافعي رحمه الله- والمتوفى سنة (٢٦١هـ)، ثم سنن الأئمة الأربعة: أبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني المتوفى سنة (275هـ)، وأبي عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي المتوفى سنة (٣٠٣هـ)، وأبي عيسى محمد بن عيسى الترمذي المتوفى سنة(٢٧٩هـ)، وأبي عبد الله محمد بن يزيد بن ماجة القزويني المتوفى سنة (٢٧٣هـ).

وأول هذه الكتب: صحيح الإمام أبي عبد الله البخاري رحمه الله، وهو أصحُّ الكتب المؤلفة في الحديث على الإطلاق، ويليه في الصحة صحيح الإمام مسلم رحمه الله، وهذان الكتابان لقيا عناية فائقة، وذلك لعناية

مؤلفيهما بجمع كثير مما صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولم يستوعبا كل صحيح، ولم يلتزما ذلك، بل يوجد خارج الصحيحين أحاديث كثيرة صحيحة، ولكن الذي في الصحيحين جملة كبيرة من الحديث الصحيح الثابت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وما اتفق عليه الشيخان البخاري ومسلم-رحمهما الله- هو أعلى درجة مما انفرد به أحدهما، وعلى ذلك فإن درجات الصحيح بالنسبة لما رواه البخاري ومسلم أو لم يروياه سبع درجات:

- الأولى: ما اتفق عليه البخاري ومسلم.
- والثانية: ما انفرد به البخاري.
- والثالثة: ما انفرد به مسلم.
- والرابعة: ما كان على شرط البخاري ومسلم ولم يخرجاه.
- والخامسة: ما كان على شرط البخاري ولم يخرجه.
- والسادسة: ما كان على شرط مسلم ولم يخرجه.
- والسابعة: ما لم يكن في الصحيحين وليس على شرطهما وهو صحيح.

فهذه درجات سبع للحديث الصحيح، وأعلاها كما تقدم ما اتفق عليه البخاري ومسلم، وأحسن كتاب أُلّف في ذلك كتاب "اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان" للشيخ محمد فؤاد عبد الباقي المتوفى سنة (١٣٨٨هـ) وقد رتبه وفقاً لترتيب الإمام مسلم، وما النص الذي يثبته فمن صحيح البخاري، حيث يختار أقرب لفظ في صحيح البخاري يوافق ما في صحيح مسلم فيثبته، وإنما أتى به على ترتيب مسلم، لأن الإمام مسلماً رحمه الله يجمع الأحاديث المتعلقة بموضوع واحد في مكان واحد فيسردها، ويذكر حديثاً يعتبره أصلا ثم يأتي بالطرق الأخرى والأسانيد ويذكر الإضافات والنقص والفروق التي بينها وبين الحديث الذي اعتبره أصلا، فيثبت الشيخ محمد فؤاد عبد الباقي لفظ الحديث عند البخاري في موضعه من صحيح مسلم ثم يقول: أخرجه البخاري في كتاب كذا، باب كذا، ويذكر رقم الكتاب ورقم الباب، وإنّما لم يثبته على ترتيب البخاري، لأن البخاري يقطع الأحاديث ويفرقها في أبواب متعددة للاستدلال بها على ما يترجم به من المسائل، لأنه أراد أن يكون كتابه كتاب رواية ودراية، وقد بلغ مجموع الأحاديث في كتاب "اللؤلؤ والمرجان" (١٩٠٦) حديث.

ويقول العلماء عند العزو لما كان في الصحيحين: رواه البخاري ومسلم، أو أخرجه الشيخان، أو متفق عليه، وعبارة "متفق عليه" في الاصطلاح المراد بها اتفاق البخاري ومسلم، إلاّ عند مجد ابن تيميّة جدّ شيخ الإسلام ابن تيميّة صاحب "منتقى الأخبار" الذي شرحه الشوكاني في "نيل الأوطار" فإنه يريد "بمتفق عليه" بالإضافة إلى البخاري ومسلم، الإمام أحمد في المسند، فإذا قال: متفق عليه، فانه يعني الثلاثة.

١- صحيح البخاري:

صحيح الإمام البخاري أصح كتب السنة، وموضوعه الأحاديث المسندة المرفوعة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد أراد البخاري أن يكون كتابه كتاب دراية، بالإضافة إلى كونه كتاب رواية، كتاب حديث وفقه، من أجل ذلك اتّبع طريقة تميّز بها عن الإمام مسلم في صحيحه وذلك بتقطيع الأحاديث وتفريقها وإيرادها تحت أبواب، من أجل الاستدلال بها على ما يترجم به، ومع تكرار الأحاديث في مواضع متعددة لا يخلي المقام من فائدة إسنادية أو متنية.

وذلك أنه إذا أورد الحديث مكرراً يورده عن شيخ آخر، فيستفاد من ذلك تعدد طرق الحديث، والأحاديث التي كررها إسناداً ومتناً قليلة جداً تزيد على العشرين قليلاً، كما أشار إلى ذلك الحافظ في الفتح (٣٤٠/١١) وكما في كتاب كشف الظنون (٣٦٣/١). وقد ذكرت مواضع تلك الأحاديث في الفائدة (٢٥٤) من كتابي "الفوائد المنتقاة من فتح الباري وكتب أخرى".

وهذه الطريقة التي اتبعها البخاري في تفريقه الأحاديث على الأبواب ترتب عليها وجود بعض الأحاديث في غير مظنتها، فظن بعض العلماء خلو الكتاب منها كما حصل للحاكم رحمه الله في المستدرك حيث استدرك على البخاري أحاديث، وقال إنه لم يخرجها مع وجودها في صحيح البخاري، ومن أمثلة ذلك الحديث الذي رواه البخاري (٢٢٨٤) في كتاب الإجارة في النهي عن عسب الفحل، فقد استدركه الحاكم على البخاري فوهم، قال الحافظ في شرح الحديث: "وقد وهم في استدراكه، وهو في البخاري كما ترى، وكأنه لما لم يره في كتاب البيوع توهم أن البخاري لم يخرجه".

وأما فقه البخاري فهو واضح من تراجمه التي وصفها الحافظ ابن حجر في مقدمة الفتح بكونها حيرت الأفكار وأدهشت العقول والأبصار، وبكونها بعيدة المنال منيعة المثال، انفرد بتدقيقه فيها عن نظرائه، واشتهر بتحقيقه لها عن قرنائه. ومن أمثلة دقته في تراجمه قوله في كتاب الإجارة: "باب إذا استأجر أجيراً ليعمل له بعد ثلاثة أيام أو بعد شهر أو بعد سنة جاز وهما على شرطهما الذي اشترطاه إذا جاء الأجل" والمقصود من هذه الترجمة أن مدة الإجارة لا يشترط فيها أن تكون تالية لوقت إبرام العقد، وأورد تحت هذه الترجمة حديث عائشة رضي الله عنها (٢٢٦٤) في استئجار النبي صلى الله عليه وسلم وأبى بكر رضي الله عنه رجل من بني الدِّيل هاديا خرِّيتا ودفعا إليه راحلتيهما، ووعداه غار ثور بعد ثلاث ليال.

ومن منهج البخاري في صحيحه أنه قد يروي الحديث في موضع واحد بإسنادين عن شيخين فيجعل المتن للشيخ الثاني منهما، أشار إلى ذلك الحافظ ابن حجر في الفتح (٤٣٦/١) وقال: "وقد ظهر بالاستقراء من صنيع البخاري أنه إذا أورد الحديث عن غير واحد فان اللفظ يكون للأخير، والله أعلم".

ومن منهج البخاري أيضا في صحيحه انه إذا مرت به لفظة غريبة توافق كلمة في القران أتى بتفسير تلك الكلمة التي من القران، فيكون بذلك جمع بين تفسير غريب القران والحديث، أشار إلى ذلك الحافظ في الفتح في مواضع متعددة انظر على سبيل المثال (٣٤٣/٣، ٣٢٤، ١٩٦). والحافظ ابن حجر-عليه رحمة الله- تمكن من معرفة اصطلاحات البخاري ومنهجه في صحيحه، وقد ذكرت في كتاب "الفوائد المنتقاة من فتح الباري وكتب أخرى" جملة كبيرة من الفوائد المتعلقة بذلك من الفائدة (٢٢٦) إلى (٢٨٤).

ولأهمية صحيح البخاري لقي عناية من العلماء في مختلف العصور، وكان على رأس الذين وفِّقوا للعناية بهذا الكتاب الحافظ ابن حجر العسقلاني المتوفى سنة (٨٥٢هـ)، فقد شرحه شرحا نفيسا واسعا جمع فيه ما اقتبسه من غيره ممن تقدمه، وما وفقه الله لفهمه واستنباطه من ذلك الكتاب العظيم، وذلك في كتابه "فتح الباري" الذي يعتبر حداً فاصلا بين من سبقه ومن لحقه، فالذين تقدموه جمع ما عندهم، والذين تأخروا عنه صار كتابه مرجعاً لهم، وقد طبع كتاب "فتح الباري" في المطبعة السلفية في مصر، واشتملت الأجزاء الثلاثة الأولى منه على تعليقات نفيسة لشيخنا الشيخ عبد العزيز بن باز رحمه الله.

وقد أُثبت في هذه الطبعة ترقيم أحاديث الكتاب التي وضعها الشيخ محمد فؤاد عبد الباقي. وطريقته في الترقيم أنه يثبت في أول موضع يرد فيه ذكر الحديث أرقامه في المواضع الأخرى التي تأتي بعد ذلك، وعند ورود الحديث في تلك المواضع لا يشير إلى الموضع الأول الذي ذكرت فيه الأرقام، ويمكن الاهتداء إلى الموضع الأول بالنظر في شرح الحافظ ابن حجر للحديث، فقد يشير فيه إلى المواضع المتقدمة، ويمكن ذلك أيضا بالرجوع إلى "فهارس البخاري" لرضوان محمد رضوان، فانه عندما يأتي للموضع التي تكرر فيها ذكر الحديث يقول: انظر كذا رقم كذا، مشيرا إلى الكتاب الذي ورد فيه ذكر الحديث أول مرة ورقمه.

وعدد كتب صحيح البخاري سبعة وتسعون كتابا، وعدد أحاديثه بالتكرار كما في ترقيم الشيخ محمد فؤاد عبد الباقي (٧٥٦٣) حديث، وفي صحيح البخاري اثنان وعشرون حديثا ثلاثيا.

٢- صحيح مسلم:

وصحيح مسلم للإمام مسلم يلي صحيح البخاري في الصحة، وقد اعتنى مسلم –رحمه الله- بترتيبه، فقام بجمع الأحاديث المتعلقة بموضوع واحد فأثبتها في موضع واحد، ولم يكرر شيئا منها في مواضع أخرى إلا في أحاديث قليلة بالنسبة لحجم الكتاب، ولم يضع لكتابه أبوابا، وهو في حكم المبوب، لجمعه الأحاديث في الموضوع الواحد في موضع واحد.

ومما يميز به صحيح الإمام مسلم إثبات الأحاديث بأسانيدها ومتونها كما هي من غير تقطيع أو رواية بمعنى، مع المحافظة على ألفاظ الرواة، وبيان من يكون له اللفظ منهم، ومن عبر منهم بلفظ حدثنا، وبلفظ أخبرنا، وقد أثنى الحافظ ابن حجر في ترجمة الإمام مسلم في كتابه "تهذيب التهذيب" على حسن عنايته في وضع صحيحه، فقال:

((قلت: حصل لمسلم في كتابه حظ عظيم مفرط لم يحصل لأحد مثله، بحيث أن بعض الناس كان يفضله على صحيح محمد بن إسماعيل، وذلك لما اختص به من جمع الطرق وجودة السياق والمحافظة على أداء الألفاظ كما هي، من غير تقطيع ولا رواية بمعنى، وقد نهج على منواله خلق من النيسابوريين فلم يبلغوا شأنَه، وحفظت منهم أكثر من عشرين إماماً ممن صنف المستخرج على مسلم، فسبحان المعطي الوهاب)).

وقد قام الشيخ محمد فؤاد عبد الباقي رحمه الله بالعناية بإخراج صحيح مسلم ووضع فهارس له متعددة مفصلة، وطبع الكتاب بعمله هذا في أربعة مجلدات أثبت فيها تراجم الأبواب التي وضعها الإمام النووي–رحمه الله– وهي ليست من عمل مسلم، كما قام بترقيم الأحاديث الأصلية فيه فبلغت (٣٠٣٣) حديث، وبلغ مجموع كتب صحيح مسلم أربعة وخمسين كتابا، ووضع الشيخ محمد فؤاد عبد الباقي مجلداً خامساً مشتملاً على الفهارس المتنوعة المفصلة لصحيح مسلم رحمه الله، وأعلى الأسانيد في صحيح مسلم الرباعيات.

٢– سنن أبي داود:

كتاب السنن لأبي داود كتاب ذو شأن عظيم، عني فيه مؤلفه بجمع أحاديث الأحكام وترتيبها وإيرادها تحت تراجم أبواب تدل على فقهه وتمكنه في الرواية والدراية، قال فيه أبو سليمان الخطابي في أول كتاب "معالم السنن": ((وقد جمع أبو داود في كتابه هذا من الحديث في أصول العلم وأمهات السنن وأحكام الفقه ما لا نعلم متقدماً سبقه إليه ولا متأخراً لحقه فيه)).

وللحافظ المنذري تهذيب لسنن أبي داود وللإمام ابن القيم تعليقات على هذا التهذيب، وقد وصف ابن القيم–رحمه الله– "سنن أبي داود" و "تهذيب المنذري" وما علقه عليه فقال: ((ولما كان كتاب السنن لأبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني –رحمه الله– من الإسلام بالموضع الذي خصه الله به، بحيث صار حكماً بين أهل الإسلام، وفصلاً في موارد النزاع والخصام، فإليه يتحاكم المنصفون، وبحكمه يرضى المحققون، فانه جمع شمل أحاديث الأحكام، ورتبها أحسن ترتيب، ونظمها أحسن نظام، مع انتقائها أحسن انتقاء، وإطراحه منها أحاديث المجروحين والضعفاء.

وكان الإمام العلامة الحافظ زكي الدين أبو محمد عبد العظيم المنذري –رحمه الله– قد أحسن في اختصاره وتهذيبه، وعزو أحاديثه وإيضاح علله وتقريبه، فأحسن حتى لم يكد يدع للإحسان موضعاً، وسبق حتى جاء من خلفه له تبعاً: جعلت كتابه من أفضل الزاد، واتخذته ذخيرة ليوم المعاد. فهذبته نحو ما هذب هو به الأصل، وزدت عليه من الكرم على علل سكت عنها أو لم يكملها، والتعرض إلى تصحيح أحاديث لم يصححها، والكلام على متون مشكلة لم يفتح مقفلها، وزيادة أحاديث صالحة في الباب لم يشر إليها، وبسطت الكلام على مواضع جليلة، لعل الناظر المجتهد لا يجدها في كتاب سواه)).

وكتاب سنن أبي داود مقدم على غيره من كتب السنن الأخرى، وقد بلغ مجموع كتبه خمسة وثلاثين كتاباً، وبلغ مجموع أحاديثه (5274) حديث. وأعلى الأسانيد في سنن أبي داود الرباعيات وهي التي يكون بينه وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم فيها أربعة أشخاص. ولسنن أبي داود عدة شروح من أشهرها "عون المعبود" لأبى الطيب شمس الحق العظيم آبادي.

٣- سنن النسائي:

صنف الإمام النسائي-رحمه الله- في السنن كتابين هما، السنن الكبرى، والصغرى التي اختصرها منها، ويقال لها المجتبى أي: المختارة من الكبرى، والسنن الصغرى هي التي لقيت عناية خاصة من العلماء، وهي التي اعتبرت أحد الكتب الحديثيه الستة، وهو كتاب عظيم القدر، كثير الأبواب، وتراجم أبوابه تدل على فقه مؤلفه، بل أن منها ما تظهر فيه دقة الإمام النسائي في الاستنباط، ومن أمثلة ذلك: قوله في أوائل كتاب الطهارة: " الرخصة في السواك بالعشي للصائم" وهي مسألة للعلماء فيها قولان:

أحدهما: منع الاستياك بعد الزوال قالوا: لأنه يذهب الخلوف الوارد في قوله صلى الله عليه وسلم: «لخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك».

والقول الثاني: الجواز لدخوله تحت عموم قوله صلى الله عليه وسلم: «لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة» وقد أورد النسائي هذا الحديث تحت هذه الترجمة وهو أرجح القولين في المسالة لدلالة الحديث على ذلك، قال السندي في حاشيته على السنن منوِّهاً بدقة الإمام النسائي قال: ((ومنه يؤخذ ما ذكره المصنف من الترجمة، ولا يخفى أن هذا من المصنف استنباط دقيق وتيقظ عجيب، فلله دره ما أدق وأحد فهمه)).

وأعلى الأسانيد في سنن النسائي الرباعيات، وقد بلغ مجموع كتبه واحدا وخمسين كتاباً وبلغت أحاديثه (5774) حديث، وأحسن طبعات هذا الكتاب الطبعة التي حققها ورقمها ووضع فهارسها مكتب تحقيق التراث الإسلامي- دار المعرفة بيروت، فانه عند كل حديث يذكر رقمه، وأرقام مواضعه الأخرى عند النسائي، ويذكر تخريج بقية أصحاب الكتب الستة، وأرقام الحديث عندهم، ورقمه في تحفة الأشراف.

٤- سنن الترمذي:

سنن الترمذي ويقال له الجامع، من أهم كتب الحديث وأكثرها فوائد، اعتنى فيه مؤلفه بجمع الأحاديث وترتيبها، وبيان فقهها، وذكر أقوال الصحابة والتابعين وغيرهم في المسائل الفقهية، ومن لم يذكر أحاديثهم من الصحابة أشار إليها بقوله: وفي الباب عن فلان وفلان، واعتنى ببيان درجة الأحاديث من الصحة والحسن والضعف، وفيه أحاديث رباعية كثيرة، وفيه حديث ثلاثي واحد أخرجه الترمذي في كتاب الفتن -(٢٢٦٠) فقال: "حدثنا عمر بن شاكر، عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:«يأتي على الناس زمان الصابر فيهم على دينه كالقابض على الجمر». وقال: هذا حديث غريب من هذا الوجه. وفي إسناده عمر بن شاكر وهو ضعيف، لكن الحديث صحيح بالشواهد، انظر "السلسلة الصحيحة" رقم (٩٥٧). **وعدد كتب جامع الترمذي خمسون كتاباً، وعدد أحاديثه (٣٩٥٦) حديث، وأحسن شروح جامع الترمذي كتاب "تحفة الأحوذي" للشيخ عبد الرحمن المباركفوري المتوفي (١٣٥٣هـ).**

٥- سنن ابن ماجه:

سنن ابن ماجه سادس الكتب الستة على القول المشهور وهو أقلها درجة، قال الحافظ ابن حجر في ترجمة ابن ماجه في تهذيب التهذيب: ((كتابه في السنن جامع جيد كثير الأبواب والغرائب وفيه أحاديث ضعيفة جدا، حتى بلغني أن السري كان يقول: مهما انفرد بخبر فيه فهو ضعيف غالباً، وليس الأمر في ذلك على إطلاقه باستقرائي، وفي الجملة ففيه أحاديث كثيرة منكرة، والله المستعان)).

وإنما اعتبر سادس الكتب الستة لكثرة زوائده على الكتب الخمسة، وقيل سادسها الموطأ لعلو إسناده، وقيل السادس سنن الدار مي. وأحسن طبعاته الطبعة التي أخرجت بعناية الشيخ محمد فؤاد عبد الباقي التي رقم فيها الأحاديث فبلغت (4341) حديث، وبلغت كتبه سبعة وثلاثين كتاباً، وذكر الشيخ محمد فؤاد عبد الباقي في كلام له في آخر السنن أن أحاديثه الزائدة على الكتب الخمسة بلغت (١٣٣٩) حديث.

وفي سنن ابن ماجه خمسة أحاديث ثلاثيات الإسناد، كلها من طريق جبارة بن المغلس، عن كثير ابن سليم، عن أنس رضي الله عنه، ثلاثة منها في كتاب الأطعمة (٣٣٥٦) (٣٣٥٧)، (٣٣١٠)، وفي كتاب الزهد واحد (٤٢٩٢)، وواحد في كتاب الطب (٣٤٧٩)، وجبارة وكثير انفرد ابن ماجه عن بقية أصحاب الكتب الستة بإخراج حديثهما، وقال عنها الحافظ ابن حجر في تقريب التهذيب أنهما ضعيفان، وهذه الأحاديث الخمسة من زوائد سنن ابن ماجة على الكتب الخمسة.

وقد ألف الشيخ أحمد ين أبي بكر البوصيري المتوفي سنة (٨٤٠هـ) كتاب "مصباح الزجاجة" في زوائد ابن ماجة، وبلغت أحاديثه في بعض طبعاته (١٥٥٢) حديث.

وهذه الكتب الستة لقيت من العلماء عناية في أطرافها ورجالها، وأحسن ما ألّف في أطرافها كتاب أبي الحجاج المزي "تحفة الأشراف بمعرفة الأطراف" وقد رتبه على أسماء الصحابة رضي الله عنهم، وعند كل صحابي يذكر الأسانيد من الأئمة أصحاب الكتب الستة إلي التابعين، وهذا الكتاب العظيم يعتبر بالنسبة للأسانيد بمثابة نسخ أخرى لتلك الكتب الستة.

وأحسن ما ألف في رجالها بل في رجال مؤلفات أصحابها كتاب "تهذيب الكمال في أسماء الرجال" لأبى الحجاج المزي، فإنه مشتمل على أسماء رجال الكتب الستة ورجال مؤلفات أخرى لأصحاب الكتب الستة مثل رجال الأدب المفرد، وجزء القراءة خلف الإمام، وخلق أفعال العباد للبخاري وغيرها.

وأما الكتاب المقتصر على رجال الكتب الستة فهو "كتاب الكاشف" للذهبي. وقد اعتنى الحافظ أبو الحجاج المزي عند ترجمة كل راوٍ بذكر شيوخه وتلاميذه مرتبين على ترتيب حروف الهجاء، ثم يذكر ما قيل في صاحب الترجمة من جرح وتعديل، ويختم الترجمة بذكر أسماء الذين خرجوا أحاديثه من الأئمة الستة في كتبهم وفي أول الترجمة يثبت الرموز لهم.

وقد هذب كتابه هذا الحافظ ابن حجر في كتابه "تهذيب التهذيب"، فيذكر عند كل ترجمة بعض شيوخ الراوي وتلاميذه وما ذكره المزي مما قيل فيه، ثم يختم الترجمة بذكر إضافات أخرى مبدوءة بقوله: ـ(قلت)، وعندما ينظر طالب العلم في ترجمة الراوي في تهذيب التهذيب وما اشتملت عليه من جرح وتعديل يتساءل! ما هي النتيجة التي انتهى إليها الحافظ ابن حجر في الحكم على الراوي؟

والجواب على هذا التساؤل موجود عند الحافظ ابن حجر في كتابه تقريب التهذيب، فيقول عنه ثقة أو صدوق أو ضعيف أو غير ذلك. وكتاب المزي تهذيب الكمال هذبه أيضاً الذهبي في كتابه "تذهيب تهذيب الكمال"، ولخصه الخزرجي في "خلاصة تذهيب تهذيب الكمال". والفرق بين ما في التقريب والخلاصة أن الحافظ ابن حجر في التقريب يثبت رأيه في الراوي ويذكر طبقته، وأما الخزرجي في الخلاصة فانه يذكر بعض شيوخ الراوي وبعض تلاميذه ويذكر بعض ما قيل في الحكم عليه جرحاً أو تعديلا، وعند ذكر الصحابي يذكر عدد الأحاديث التي له في الكتب الستة، وعدد ما اتفق عليه البخاري ومسلم منها، وعدد ما انفرد به كل واحد منهما عن الأخر.

وفي كتاب "تهذيب الكمال" للمزي وما تفرع عنه من الكتب ذكر رواة ليس لهم رواية عند أصحاب الكتب الستة، ذكروا لتمييزهم عن رواة مذكورين قبلهم لهم رواية عند أصحاب الكتاب الستة، والرمز لهم في هذه الكتب بكلمة (تمييز) عند الترجمة.

فمثلاً: كثير بن أبي كثير جاء في هذه الترجمة خمسة رواة، الأول روى له أبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه في التفسير، والثاني روى له البخاري في الأدب المفرد، والثلاثة الباقون ليس لهم رواية وإنما ذكروا لتمييزهم عن الاثنين قبلهم.

وقد جمع أبو نصر الكلاباذي رجال صحيح البخاري في مؤلف خاص، وجمع أبو بكر بن منجويه الأصبهاني رجال صحيح مسلم في مؤلف خاص، وجمع بين الكتابين الحافظ أبو الفضل محمد بن طاهر المقدسي المعروف بابن القيسراني، واسم كتابه "الجمع بين رجال الصحيحين" وكلها مطبوعة، وكتاب ابن القيسراني مختصر، وطريقته فيه أنه عندما يذكر التراجم التي تحت اسم واحد كأحمد مثلاً: يذكر من اسمه أحمد عند البخاري ومسلم، ثم من اسمه أحمد عند البخاري ثم من اسمه أحمد عند مسلم، ومن أجل فوائده أن الراوي إذا كان قليل الرواية، فإنه يذكر مواضع أحاديثه في الصحيحين أو أحدهما، وذلك بذكر الكتاب الذي ورد فيه الحديث.

وقد ألف الشيخ يحيى بن أبي بكر العامري اليمني في الصحابة الذين لهم رواية في الصحيحين أو أحدهما كتاباً سماه "الرياض المستطابة في جملة من روى في الصحيحين من الصحابة"، وهو كتاب عظيم الفائدة.

ومن المناسب ذكره هنا أن للحافظ الذهبي كتابا اسمه "ميزان الاعتدال في نقد الرجال" اشتمل على تراجم لرجال ورد ذكرهم في تهذيب الكمال وما تفرع عنه، وعلى تراجم لرجال غيرهم، وفيه ثقات ذكرهم لا لنقدهم وإنما للدفاع عنهم؛ مثل علي بن المديني، وعبد الرحمن بن أبي حاتم.

وللحافظ ابن حجر كتاب كبير سماه "لسان الميزان" بناه على كتاب الميزان للذهبي مع زيادات كثيره عليه، وقد قصره على تراجم رجال لا ذكر لهم في كتاب تهذيب الكمال وما تفرع عنه، وهو يعتبر إضافة رجال آخرين إلى رجال أصحاب الكتب الستة.

وقد جمع متون الكتب الستة وسادسها الموطأ أبو السعادات ابن الأثير في كتابه "جامع الأصول" ، وهو مطبوع متداول، وقد هذب به كتاب رزين العبدري "التجريد والسنن"، ويرمز عند كل حديث للذين خرجوه من الأئمة الستة و وفيه أحاديث زائدة على ما في الكتب الستة وهذه الزيادات لرزين ، وعلامتها في جامع الأصول خلوها من الرموز أمامها. وابن الأثير رتب كتابه "جامع الأصول" على كتب مرتبة على حروف الهجاء، فيذكر في كل كتاب ما يتعلق بموضوعه.

وإذا أراد طالب العلم الوقوف على حديث في الكتب الستة وهو يعرف متنه فيمكنه ذلك بالبحث عنه في مظنته من الكتب التي اشتملت عليها الكتب الستة.

فإذا كان الحديث يتعلق بالإيمان مثلا بحث عنه في كتاب الإيمان من الصحيحين والسنن، وإذا كان يعرف اسم الصحابي راوي الحديث رجع إلى " تحفة الأشراف " للحافظ المزي، فإنه يذكر أماكن وجود الحديث في الكتب الستة، أو رجع إلى كتاب "ذخائر المواريث في الدلالة على مواضيع الحديث" للشيخ عبد الغني النابلسي فإنه يذكر طرف الحديث، ويذكر من خرجه من أصحاب الكتب الستة بالإضافة إلى الإمام مالك في الموطأ، مع ذكر شيخ المؤلف فيه.

ويمكن الاهتداء إلى موضع الكلمات في الحديث المعين فيرجع إلى كتاب "المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي" الذي بني على الكتب الستة والموطأ وسنن الدارمي ومسند الإمام أحمد، فيبحث عن الكلمة، فإذا الدلالة على موضعه منها، وذلك بذكر اسم الكتاب ورقم الباب، إلا في صحيح مسلم وموطأ الإمام مالك فإنه يكون بذكر اسم الكتاب ورقم الباب، وإلا في مسند الإمام أحمد فإن الإشارة فيه إلى الجزء والصفحة من الطبعة ذات الستة أجزاء. (كتاب الشيخ: كيف نستفيد من الكتب الستة).

❊ ❊ ❊

القصص النبوي الصحيح

القصة الأولى
نبي الله إبراهيم عليه السلام وزوجه ساره مع الملك الظالم

الشيخ: عاطف الفيومي.

هذه سلسلة من القصص النبوي الصحيح الثابت عن النبي صلى الله عليه وسلم، أو جاء على لسانه، نسردها تباعًا إن شاء الله، لتكون زادًا للمسلم، وزادًا للخطيب والداعية، يستغني بها عن كثير من القصص الضعيفة والباطلة المشهورة على الألسن، ويستخرج منها الزاد والعبرة في مطالعته أو دراسته على شروح القصة، ونستفتح هذا القصص بالقصة الأولى مع نبي الله إبراهيم عليه السلام، وزوجه ساره مع الملك الجبار الظالم:

عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ – رضى الله عنه – قَالَ: قَالَ النَّبِىُّ – صلى الله عليه وسلم –: «هَاجَرَ إِبْرَاهِيمُ – عَلَيْهِ السَّلاَمُ – بِسَارَةَ، فَدَخَلَ بِهَا قَرْيَةً فِيهَا مَلِكٌ مِنَ الْمُلُوكِ، أَوْ جَبَّارٌ مِنَ الْجَبَابِرَةِ، فَقِيلَ دَخَلَ إِبْرَاهِيمُ بِامْرَأَةٍ، هِىَ مِنْ أَحْسَنِ النِّسَاءِ.

فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ، مَنْ هَذِهِ الَّتِى مَعَكَ؟ قَالَ: "أُخْتِى". ثُمَّ رَجَعَ إِلَيْهَا، فَقَالَ: "لاَ تُكَذِّبِى حَدِيثِى فَإِنِّى أَخْبَرْتُهُمْ أَنَّكِ أُخْتِى، وَاللَّهِ إِنْ عَلَى الأَرْضِ مُؤْمِنٌ غَيْرِى وَغَيْرُكِ".

فَأَرْسَلَ بِهَا إِلَيْهِ، فَقَامَ إِلَيْهَا، فَقَامَتْ تَوَضَّأُ وَتُصَلِّى فَقَالَتِ: "اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتُ آمَنْتُ بِكَ وَبِرَسُولِكَ وَأَحْصَنْتُ فَرْجِى، إِلاَّ عَلَى زَوْجِى فَلاَ تُسَلِّطْ عَلَىَّ الْكَافِرَ". فَغُطَّ حَتَّى رَكَضَ بِرِجْلِهِ».

قَالَ الأَعْرَجُ: قَالَ أَبُو سَلَمَةَ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ: إِنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَتِ: "اللَّهُمَّ إِنْ يَمُتْ يُقَالُ هِىَ قَتَلَتْهُ". فَأُرْسِلَ ثُمَّ قَامَ إِلَيْهَا، فَقَامَتْ تَوَضَّأُ تُصَلِّى، وَتَقُولُ: "اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتُ آمَنْتُ بِكَ وَبِرَسُولِكَ، وَأَحْصَنْتُ فَرْجِى، إِلاَّ عَلَى زَوْجِى، فَلاَ تُسَلِّطْ عَلَىَّ هَذَا الْكَافِرَ"، فَغُطَّ حَتَّى رَكَضَ بِرِجْلِهِ.

قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ: قَالَ أَبُو سَلَمَةَ: قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: فَقَالَتِ: "اللَّهُمَّ إِنْ يَمُتْ فَيُقَالُ هِىَ قَتَلَتْهُ"، فَأُرْسِلَ فِى الثَّانِيَةِ، أَوْ فِى الثَّالِثَةِ، فَقَالَ وَاللَّهِ مَا أَرْسَلْتُمْ إِلَىَّ إِلاَّ شَيْطَاناً، ارْجِعُوهَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ، وَأَعْطُوهَا.رواه البخاري.

الانحراف في حياة البشرية والشرك تعريفه وأنواعه

مختارات: للشيخ صالح بن فوزان الفوزان

خلق الله الخلق لعبادته. وهيأ لهم ما يعينهم عليها من رزقه. قال تعالى: (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون . ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين)، والنفس بفطرتها إذا تركت كانت مقرة لله بالإلهية محبة لله تعبده لا تشرك به شيئا. ولكن يفسدها وينحرف بها عن ذلك ما يزين لها شياطين الإنس والجن بما يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا. فالتوحيد مركوز في الفطر. والشرك طارئ ودخيل عليها. قال الله تعالى: (فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله)، وقال صلى الله عليه وسلم: "كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه ". فالأصل في بني آدم التوحيد.

والدين الإسلام من عهد آدم عليه السلام ومن جاء بعده من ذريته قرونا طويلة، قال تعالى: (كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين)

وأول ما حدث الشرك والانحراف عن العقيدة الصحيحة في قوم نوح، فكان عليه السلام أول رسول (إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده)

قال ابن عباس: كان بين آدم ونوح عليهما السلام عشرة قرون كلهم على الإسلام. قال ابن القيم (إغاثة اللهفان ١٠٢/٢): وهذا القول هو الصواب قطعا فان قراءة أبي بن كعب يعني في آية البقرة: (فاختلفوا فبعث الله النبيين). ويشهد لهذه القراءة قوله تعالى في سورة يونس: (وما كان الناس إلا أمة واحد فاختلفوا).

يريد رحمه الله أن بعثة النبيين سببها الاختلاف عما كانوا عليه من الدين الصحيح- كما كانت العرب بعد ذلك على دين إبراهيم عليه السلام حتى جاء عمرو بن لحي الخزاعي فغير دين إبراهيم وجلب الأصنام إلى أرض العرب وإلى أرض الحجاز بصفة خاصة فعبدت في دون الله وانتشر الشرك في هذه البلاد المقدسة وما جاورها إلى أن بعث الله نبيه محمدا خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم فدعا الناس إلى التوحيد واتباع ملة إبراهيم وجاهد في الله حق جهاده حتى عادت عقيدة التوحيد وملة إبراهيم وكسر الأصنام وأكمل الله به الدين وأتم به النعمة على العالمين وسارت على نهجه القرون المفضلة من صدر هذه الأمة إلى أن فشا الجهل في القرون المتأخرة ودخلها الدخيل من الديانات الأخرى فعاد الشرك إلى كثير من هذه الأمة بسبب دعاة الضلال وبسبب البناء على القبور متمثلا بتعظيم الأولياء والصالحين وادعاء المحبة لهم حتى بنيت الأضرحة على قبورهم واتخذت أوثانا تعبد من دون الله بأنواع القربات من دعاء واستغاثة وذبح ونذر لمقاماتهم. وسموا هذا الشرك توسلا بالصالحين واظهارا لمحبتهم وليس عبادة لهم بزعمهم. ونسوا أن هذا هو قول المشركين الأولين حيث يقولون (ما نعبدهم إلى ليقربونا إلى الله زلفا)

ومع هذا الشرك الذي وقع في البشرية قديما وحديثا فالأكثرية منهم يؤمنون بتوحيد الربوبية وإنما يشركون في العبادة كما قال تعالى: (وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون).

ولم يجحد وجود الرب إلا نزر يسير من البشر كفرعون والملاحدة الدهريين والشيوعيين في هذا الزمان- وجحودهم به من باب المكابرة

وإلا فهم مضطرون للإقرار به في باطنهم وقرارة نفسهم- كما قال تعالى: (وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا).

وعقولهم تعرف أن كل مخلوق لا بد له من خالق وكل موجود لا بد له من موجد، وأن نظام هذا الكون المنضبط الدقيق لابد له من مدبر حكيم قدير عليم. من أنكره فهو أما فاقد لعقله أو مكابر قد ألغى عقله وسفه نفسه وهذا لا عبرة به.

الشرك: تعريفه، أنواعه

أ- تعريفه:

الشرك هو جعل شريك لله تعالى في ربوبيته وإلهيته. والغالب الإشراك في الألوهية بأن يدعو مع الله غيره أو يصرف له شيئا من أنواع العبادة كالذبح والنذر والخوف والرجاء والمحبة.

والشرك أعظم الذنوب وذلك لأمور:

١- لأنه تشبيه للمخلوق بالخالق في خصائص الإلهية، فمن أشرك مع الله أحدا فقد شبهه به. وهذا أعظم الظلم، قال تعالى(إن الشرك لظلم عظيم).

والظلم هو وضع الشيء في غير موضعه. فمن عبد غير الله فقد وضع العبادة في غير موضعها وصرفها لغير مستحقها وذلك أعظم الظلم.

٢- أن الله أخبر أنه لا يغفره لمن لم يتب منه، قال تعالى:

(إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء)

٣- أن الله أخبر أنه حرم الجنة على المشرك وأنه خالد مخلد في نار جهنم- قال تعالى:(إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار)

٤- أن الشرك يحبط جميع الأعمال- قال تعالى:(ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون) وقال تعالى: (ولقد أحي إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين)

٥- أن المشرك حلال الدم والمال، قال تعالى: (فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد)

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: "أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها".

٦- أن الشرك أكبر الكبائر، قال صلى الله عليه وسلم: "ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟ قلنا بلى يا رسول الله قال: "الإشراك بالله وعقوق الوالدين " الحديث. قال العلامة ابن القيم (الجواب الكافي ١٠٩) أخبر سبحانه أن القصد بالخلق والأمر أن يعرف بأسمائه وصفاته ويعبد وحده لا يشرك به. وأن يقوم الناس بالقسط وهو العدل الذي قامت به السماوات والأرض كما قال تعالى: (لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط)

فأخبر سبحانه أنه أرسل رسله وأنزل كتبه ليقوم الناس بالقسط وهو العدل، ومن أعظم القسط التوحيد وهو رأس العدل وقوامه. وأن الشرك ظلم كما قال تعالى: (إن الشرك لظلم عظيم).

فالشرك أظلم الظلم، والتوحيد أعدل العدل، فما كان أشد منافاة لهذا المقصود فهو أكبر الكبائر- إلى أن قال: فلما كان الشرك منافيا بالذات لهذا المقصود كان أكبر الكبائر على الإطلاق وحرم الله الجنة على كل مشرك وأباح دمه وماله وأهله لأهل التوحيد وأن يتخذوهم عبيدا لهم لما تركوا القيام بعبوديته. وأبى الله سبحانه أن يقبل لمشرك عملا. أو يقبل فيه شفاعة. أو يستجيب له في الآخرة دعوة. أو يقبل له فيها رجاء. فان المشرك أجهل الجاهلين بالله. حيث جعل له من خلقه ندا. وذلك غاية الجهل به، كما أنه غاية الظلم منه، وإن كان المشرك في الواقع لم يظلم ربه وإنما ظلم نفسه. انتهى.

٧- أن الشرك تنقص وعيب نزه الرب سبحانه نفسه عنهما، فمن أشرك بالله فقد أثبت لله ما نزه نفسه عنه وهذا غاية المحادة لله تعالى وغاية المعاندة والمشاقة لله.

ب. أنواع الشرك: الشرك نوعان:

النوع الأول، شرك أكبر يخرج من الملة ويخلد صاحبه في النار إذا لم يتب منه، وهو صرف شي من العبادة لغير الله، كدعاء غير الله والتقرب بالذبائح والنذور لغير الله من القبور والجن والشياطين والخوف من الموتى أو الجن والشياطين أن يضروه أو يمرضوه، ورجاء غير الله فيما يقدر عليه إلا الله من قضاء الحاجات وتفريج الكربات مما يمارس الآن حول الأضرحة المبنية على قبور الأولياء والصالحين. قال تعالى: (ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله)

النوع الثاني، شرك أصغر لا يخرج من الملة لكنه ينقص التوحيد وهو وسيلة إلى الشرك الأكبر. وهو قسمان:

القسم الأول: شرك ظاهر وهو ألفاظ وأفعال، فالألفاظ كالحلف بغير الله، قال صلى الله عليه وسلم: "من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك." وقوله: ما شاء الله وشئت، قال صلى الله عليه وسلم لما قال له رجل ما شاء الله وشئت فقال: "أجعلتني لله ندا قل ما شاء الله وحده" وقول: لولا الله وفلان- والصواب أن يقال: ما شاء الله ثم فلان، ولولا الله ثم فلان- لأن ثم الترتيب مع التراخي تجعل مشيئة العبد تابعة لمشيئة الله، كما قال تعالى: (وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين)

وأما الواو فهي لمطلق الجمع والاشتراك لا تقتضي ترتيبا ولا تعقيبا. ومثله قول مالي إلا الله وأنت. وهذا من بركات الله وبركاتك.

وأما الأفعال: فمثل لبس الحلقة والخيط لرفع البلاء أو دفعه ومثل تعليق التمائم خوفا من العين وغيرها إذا اعتقد أن هذه أسباب لرفع البلاء أو دفعه فهذا شرك أصغر. لأن الله لم يجعل هذه أسبابا. أما إن اعتقد أنها تدفع أو ترفع البلاء بنفسها فهذا شرك أكبر لأنه تعلق بغير الله.

القسم الثاني من الشرك الأصغر شرك خفي وهو الشك في الإرادات والنيات ـ كالرياء والسمعة ـ كأن يعمل عملا مما يتقرب به إلى الله يريد به ثناء الناس عليه، كأن يحسن صلاته أو يتصدق لأجل أن يمدح ويثني عليه. أو يتلفظ بالذكر ويحسن صوته بالتلاوة لأجل أن يسمعه الناس فيثنوا عليه ويمدحوه. والرياء إذا خالط العمل أبطله- قال الله تعالى: (فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا).

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: "أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر- قالوا يا رسول الله: وما الشرك الأصغر قال:الرياء". ومنه العمل لأجل الطمع الدنيوي- كمن يحج أو يؤذن أو يؤم الناس لأجل المال- أو يتعلم العلم الشرعي أو يجاهد لأجل المال. قال النبي صلى الله عليه وسلم: "تعس عبد الدينار وتعس عبد الدرهم، تعس عبد الخميصة تعس عبد الخميلة أن أعطى رضى وان لم يعط سخط". قال الإمام ابن القيم رحمه الله: وأما الشرك في الإرادات والنيات فذلك البحر الذي لا ساحل له وقل من ينجو منه. فمن أراد بعمله غير وجه الله ونوى شيئا غير التقرب إليه وطلب الجزاء منه فقد أشرك في نيته وإرادته.

والإخلاص: أن يخلص لله في أفعاله وأقواله وإرادته ونيته. وهذه هي الحنيفية ملة إبراهيم التي أمر الله بها عباده كلهم ولا يقبل من أحد غيرها وهي حقيقة الإسلام. كما قال تعالى: (ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين). وهي ملة إبراهيم عليه السلام التي من رغب عنها فهو من أسفه السفهاء. انتهى.

يتلخص مما مر أن هناك فروقا بين الشرك الأكبر والأصغر وهي:

١- الشرك الأكبر يخرج من الملة، والشرك الأصغر لا يخرج من الملة.

٢- الشرك الأكبر يخلد صاحبه في النار، والشرك الأصغر لا يخلد صاحبه فيها إن دخلها..

٣- الشرك الأكبر يحبط جميع الأعمال، والشرك الأصغر لا يحبط جميع الأعمال وإنما يحبط الرياء والعمل لأجل الدنيا والعمل الذي خالطاه فقط.

٤- الشرك الأكبر يبيح الدم والمال، والشرك الأصغر لا يبيحهما. *المرجع: (كتاب التوحيد).

أمننا الإسلامية

بين الواقع المعاصر وطريق العودة

الشيخ : عاطف الفيومي.

هذه تأمُّلات بإيجازٍ للوقوف مع واقع أمَّتنا الإسلامية اليوم، وكيف السبيل إلى العودة والبناء والتغيير، ونركِّز حديثنا في نقاط متتالية فيما يلي:

أولاً: واقع الأمة الإسلامية المعاصر:

١-واقع أمَّتنا المعاصر:

ينبغي أولاً أن نعلم أن أمَّتنا الإسلامية اليوم تحيا في مرحلة حرجة من مراحل التاريخ، وتعيش في الوقت ذاته واقعًا مريرًا، كما أنها تحيا حياة الذل والهوان والاستكانة، وترضخ لما يُملَى عليها من أعوان الكفر والإلحاد من كلِّ أمة، ومن كلِّ جنس ولون، ولا تزال أمَّتنا تأكل فتات الموائد العالمية، وما زالت أيضًا هي القصعة المستباحة لكلِّ الأمم من الشرق أو الغرب؛ كما أخبر بذلك النبي - صلَّى الله عليه وسلَّم - منذ ألف وأربعمائة وثلاثين سنة في حديث القصعة المشهور والمحفوظ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العظيم. روى الإمام أحمد في "مسنده" عن ثوبان - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - صلَّى الله عليه وسلَّم -: ((يوشِك أن تداعَى عليكم الأمم من كلِّ أفق، كما تداعَى الأكلة على قصعتها))، قلنا: يا رسول الله، أمن قلَّة منَّا يومئذ؟ قال: ((أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل، تُنزَع المهابة من قلوب عدوِّكم، ويُجعَل الوهن))، قالوا: وما الوهن؟ قال: ((حب الدنيا وكراهة الموت)). وها نحن اليوم نرى تلك الهجمة الشرسة الجديدة من أعداء الله ورسوله - صلَّى الله عليه وسلَّم - من الشيوعية المادية الملحِدة، والصهيونية العالمية الماكرة، والصليبية الجديدة الخادعة، وغيرهم من العملاء والأذناب.

وأمة الإسلام اليوم في الوقت ذاته أمَّة شاردة عن رسالتها، غافلة عن غايتها، حيث نراها تتخبَّط ذات اليمين وذات الشمال، وعدوُّها اللدود باسِط إليها ذراعيه بالفِتَن والشهوات، فهي أمَّة صارت ممزَّقة فيما بينها، مزَّقتها الحدود والسدود، ومزَّقتها مؤامرات الأعداء المخطَّطة للنَّيْلِ منها، وأصبح بأسُها بينها شديدًا، وحالها لا يخفى على قريب أو بعيد.

فهي أمَّة تلعب في أشهر الملاعب العالمية، وترقص على أشهر وأرقى المسارح العالمية، وهي كذلك مترنِّحة بين الشيوعية مرَّة، وبين الصليبية مرَّة، وبين الصهيونية أخرى، وبين العلمانية رابعة وخامسة، وكلُّ هذا جعل أحد الشعراء ينشد أبياتًا من الشعر ينسج فيها خيوط الواقع الأليم، الذي تحياه الأمَّة الإسلامية اليوم فيقول:

مَـــــا كَـــــانَ فِـــــي مَاضِـــــي الزَّمَـــــانِ مُحَرَّمًـــــا ..... لِلنَّـــــاسِ فِـــــي هَـــــذَا الزَّمَـــــانِ مُبَـــــاحُ
صَـــــاغُوا نُعُـــــوتَ فَضَـــــائِلٍ لِعُيُـــــوبِهِمْ ..... فَتَعَـــــذَّرَ التَّمْيِيـــــزُ وَالإِصْـــــلاَحُ
فَالْفَتْـــــكُ فَـــــنٌّ وَالخِـــــدَاعُ سِيَاسَـــــةٌ ..... وَغِنَـــــى اللُّصُـــــوصِ بَرَاعَـــــةٌ وَنَجَـــــاحُ
وَالعُـــــرْيُ ظُـــــرْفٌ والفَسَـــــادُ تمـــــدُّنٌ ..... والكِـــــذبُ لطـــــفُ والريـــــاءُ صـــــلاحُ

إن الحال الذي آلَ إليه واقع أمَّتنا، وجعلها تغرق فيه عقودًا طويلة، لن يغيِّره ما يكتب العلماء في مصنَّفاتهم فقط، ولا الأدباء في هجائهم ورثائهم، ولا ما تنشره الصحف والمجلاَّت من مقالات ساخنة، ولا ما يلقيه الوعَّاظ في وعظهم وتذكيرهم، أو الخطباء في حماسهم وإنذارهم، وإن كنَّا نؤمن أن ذلك كله من وسائل التغيير والإصلاح.

ولكن كل هذه الوسائل لن تجدي من الإصلاح والتغيير شيئًا، إن لم يكن لها ما يؤهِّلها من قواعد وأسس ترتكز عليها أولاً، وتعمل وتنطلق من خلالها، ومن ثَمَّ تستمدُّ قوَّتها، وتُعِيد بناءها، وترفع لواءها، وتستعيد مجدها وكرامتها المسلوبة منذ قرون.

إن أدقَّ تشخيص لحالة أمَّتنا اليوم – كما أشار أحد الكتَّاب المعاصرين – هو أننا مُصابون بما يُشبه الشلل المعنوي والفكري في جميع أجهزتنا الأخلاقية، وملكاتنا النفسية، ومواهبنا الشخصية، وطاقاتنا العقلية، والعملية والعلمية، وكذا الاقتصادية والعددية، والروحية، كما أشار أحد الكتَّاب في مقال من مقالاته، كلُّ ذلك يجعلنا في عجز عن الحراك الصحيح نحو تحقيق أهدافنا، وتأكيد وجودنا، وإثبات ذاتنا، مع أنه من الواجب على المسلم أن يدرك وأن يعي ما يخطِّطه أعداء الإسلام والمسلمين، من الكيد لأمَّة الإسلام والنَّيْلِ منها.

فإن الداعية إن لم يدرك حقيقة المعركة، وحقيقة المؤامرة، فهو في غفلة عن واقعه الذي يعيش فيه، ويحيط به، وإلا فإن عليه أن يعي كلَّ ذلك، وأن يضع في الاعتبار في دعوته أن يتحرَّك بصدق لهذا الدين، وأن يوقظ النائمين بصوت إسلامه، وصوت قرآنه الذي يحمله بين جانبيه، وبكمال شريعته، وبواقعية منهجه، وبسهولة تطبيقه وممارسته.

إن تبليغ الحق للناس، وتعريَة الباطل لهم، وكشف زيفه، وإبراز وجهه القبيح – يُفسِد على أعدائنا طريقهم الماكر، وكيدهم الخبيث، وتخطيطهم المحكَم الذي يزعمون، وصدق الله – تعالى –: {فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّـهِ} [الروم: ٣٠].

وهنا يجسِّد واقع الأمة الإسلامية وصورتها الشيخ أبو الحسن الندوي – رحمه الله – فيقول: "ورضي عامَّة المسلمين بأن يكونوا ساقة عسكر الجاهلية بدل أن يكونوا قادة الجيش الإسلامي، وسرت فيهم أخلاق الجاهلية ومبادئ الفلسفة الأوروبية سريان الماء في عروق الشجر والكهرباء في الأسلاك؛ فترى المادية الغربية في البلاد الإسلامية في كثير من مظاهرها وآثارها.

ترى تهافتًا على الشهوات ونهمًا للحياة، نهم مَن لا يؤمن بالآخرة، ولا يوقن بحياة بعد هذه الحياة، ولا يدَّخر من طيباتها شيئًا، وترى تنافسًا في أسباب الجاه والفخار، وتكالبًا عليها، فعل مَن يغلو في تقويم هذه الحياة وأسبابها. وترى إيثارًا للمصالح والمنافع الشخصية على المبادئ والأخلاق، شأن مَن لا يؤمن بنبيٍّ ولا بكتابٍ، ولا يرجو معادًا ولا يخشى حسابًا. وترى حب الحياة وكراهة الموت، دأب مَن يعدُّ الحياة الدنيا رأس بضاعته، ومنتهى أمله ومبلغ علمه. وترى افتتانًا بالزخارف والمظاهر الجوفاء، كالأمم المادية التي ليس عندها أخلاق ولا حقيقة حية، وترى خضوعًا للإنسان، واستكانة للملوك والأمراء ورجال الحكومة والمناصب، وتقديسهم شأن الأمم الوثنية وعبَدَة الأوثان"[١].

٢- أسباب ضعف الأمة الإسلامية:

وحقيقة الأمر أن الوهن والضعف والتخلف الذي أصاب الأمة الإسلامية كانت له عِدَّة أسباب وعوامل، كان من أبرزها وأهمها فيما يبدو لي في هذا التأريخ:

أولاً: سوء الفهم للإسلام وعقيدته وشريعته وأحكامه:

وهذا الداء العُضَال دبَّ في الأمَّة الإسلامية منذ العصور الأولى للإسلام؛ حيث كان من أوَّل مَن وقع فيه الخوارج الذين خرجوا على خلافة سيدنا على – رضي الله عنه – وكفَّروه وادَّعوا بأنه حكَّم الرجال في دين الله، وقد ناظَرَهم ابن عباس – رضي الله عنهما – وأقام عليهم الحجَّة وبيَّن لهم جهلهم الكبير بحقيقة الاستدلال وفَهْمِ الكتاب والسنة، ثم جاءت القدرية من بلاد العراق، وتبرَّأ منهم ابن عمر – رضي الله عنهما – والشيعة الذين خالَفوا كثيرًا في حق الموالاة والنصرة والثأر الذي زعموا للحسين – رضي الله عنه – ثم المعتزلة والمرجئة والجهمية والصوفية، وغيرهم من هذه الفِرَق والمذاهب التي وقعتْ بسبب سوء الفهم فيما وقعتْ فيه من البِدَع والأهواء والضلالات. قال ابن القيم – رحمه الله تعالى –: "وهل أوقع القدرية والمرجئة والخوارج والمعتزلة والجهمية والروافض وسائر طوائف أهل البدع إلا سوءُ الفهم عن الله ورسوله... إلخ".

وقد تأثَّر المسلمون كثيرًا على طول الزمان بأفهام مغلوطة وقاصِرَة عن فَهْمِ حقائق الإسلام كما جاءت في الكتاب والسنة، ففهموا العقيدة على أنها لا تعني سوى القول باللسان، وأنه يكفيهم أن يقولوا: لا إله إلا الله، موقنة بها قلوبهم دون اعتبار لأيِّ عمل في ظواهرهم يثبت انتماءهم لهذه الكلمة، وفهموا الإيمان بالقَدَر على أنه اتِّكال على عفو الله وكرمه، وأنه ترْك للسعي والتعمير في الأرض؛ لأن الدنيا آخِرتها فناء، والسعادة الأبدية إنما تكون حقيقة في دار الجزاء والنعيم، فلا داعي إذًا للعمل والتعمير والبناء، وفهموا أن السياسة الإسلامية الشرعية لا تعني سوى إدارة الحكم والسلطان فحسب، وفهموا أن قول الحق لا يعني إلا الخطابة والوعظ وتعليم العلم الشرعي، وتركوا الساسة والحكَّام والظالمين يفعلون ما شاؤوا دون حسيب أو رقيب يردعهم عن طغيانهم وظلمهم، إلا قلَّة قليلة من الصادقين من أهل العلم والصدع بالحق، وكما قال الدكتور محمد قطب: اختَزَلوا مفاهيم الإسلام الكبيرة في أشياء محدودة. ومن هنا تركت الأمَّة ميادين الحياة كلها إلا قليلاً ممَّا كانت عليه، وتكاسَلت وتأخَّرت عن دورها الرائد في قيادة العالم كما كانت في القرون السالفة، في حين أن أوروبا وما جاوَرَها بدأت في يقظة سريعة بعد طول سبات وجهل، بدأت في خطوات تسعى نحو الحضارة المادية والمدنية، تسابق الريح والعواصف.

فجاءت الكارثة لمَّا تحولت عندها دفَّة القيادة من أهل العلم وأصحاب الوحي الرباني، الذين فتحوا الدنيا شرقًا وغربًا، وملكوها قرونًا وأحقابًا من الزمان، وبرعوا في كلِّ ميادين الحياة والعلوم، تحوَّلت إلى الرجل الغربي الذي لا يعرف من دنياه سوى الطعام والشراب والشهوة، ولا شاغل له سوى المادة واللهث وراء الثروات، وما أدّى بالأمة إلا سوء فهمها لحقيقة رسالتها التي ابتعثها الله – تعالى – من أجلها من إقامة العبودية لله – تعالى – وإعمار الأرض، فتركت العالم والعلم وانشغلت بالشهوات والكراسي والسلطان، واتَّكلت على سعة عفو الله ومغفرته.

ثانيًا: التآمر الصليبي واليهودي ضد العالم الإسلامي:

وهنا نؤكِّد بدايةً أن حديثنا في هذا المحور لا يعني إطلاقًا أننا نلقي بالتبعات على الأعداء وتآمرهم على المنهج الإسلامي، لكننا نؤكِّد سنَّة من سنن الله الجارية، وهي سنَّة التدافع بين الحق والباطل؛ {وَلَوْلاَ دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الأَرْضُ} [البقرة: ٢٥١].

لقد بدأت الغارات التترية والصليبية على جسد الأمة والعالم الإسلامي، وثارت العداوات وأشعلت الحرب نيرانها ضد الإسلام والمسلمين، حقدًا وحسدًا، وطمعًا في جمع خيرات العرب والمسلمين، فسخَّر الله لها رجالاً أعادوا للأمَّة عزَّتها ومجدها، ووقفوا بالمرصاد بصدق إيمانهم وعودتهم إلى شريعة الإسلام، فجاء سيف الدين قطز وتصدَّى بإيمانه وعزيمته، فكان النصر والظفر، ووقف أمام المدِّ الصليبي عماد الدين زنكي الذي تصدَّى لهم في معارك مختلفة.

ثم قاد الزمام من بعده نور الدين محمود زنكي الذي خطَّ خطًّا قويًّا للدفاع عن بلاد الإسلام والمسلمين، فاتَّخذ قرارًا بإجلاء الصليبيين من بلاد الشام والعمل على استعادة المسجد الأقصى من قبضتهم، ولكن جاءه الأجل، فأكمل المسيرة من بعده الفاتح المِغْوَار صلاح الدين الأيوبي.

وقد أدرك المخاطر الكبيرة التي أحاطت بالعالم الإسلامي يومها؛ فقام بالتخطيط والاستعداد الإيماني والعسكري وبالصدق مع الله – تعالى – بالوقوف والزحف نحو الصليبيين وبيت المقدس، بعد أن أعلن عن الجهاد في سبيل الله – تعالى – فانضمَّ العالم الإسلامي تحت لوائه ورايته، يطلب رضا الله والجنة، ورد عزَّة الإسلام والمسلمين، فكانت الغَلَبة والنصرة التي أعادت المسجد الأقصى وحرَّرت بلاد الشام، وحصلت النكاية لأعداء الإسلام، كما تَمَّ دحر المذهب الشيعي، والتصدِّي له؛ ممَّا أحدث به التراجع والانحصار.

ثم جاء من بعده نكوص آخر في الأمة الإسلامية، حتى العصر الحديث، فتآمَر المد الصليبي بأحقاده الدفينة مع المد والفكر الصهيوني اليهودي، بالوقوف مرَّة أخرى أمام العالم الإسلامي وشن الحروب العسكرية عليه. ولكنهم جاؤوا مع ذلك بنوع جديد من الحروب الفكرية، والثقافية التي غزوا بها جسد وعقول أمَّتنا، فدخلوا على ديار المسلمين بنوعين جديدين من الحروب، وهما حرب الشهوات والشبهات.

فأدخلوا دور السينما والمسارح في بلاد المسلمين، ونشروا الفساد الأخلاقي بنشر ثقافة العهر والإباحية، ونشر الأغاني الماجنة، والأفلام والمسلسلات الهابطة، ووظَّفوا جنودًا لهم ينشرون سموم المخدرات بين الشباب المسلم؛ لإضعاف أبدانهم عن الجهاد في سبيل الله – تعالى – ونصرة الإسلام. وجاؤوا بِمَن سموهم الأدباء والمفكِّرين الذي أسهموا بنشر هذه الثقافات المستغربة بين الأمة وشبابها.

وأمَّا الشبهات فقد استخدموا نفس السلاح من المثقفين والكتاب في بثِّ الشكوك حول الثوابت الشرعية، وأصول الدين، في كونه لا يصلح لهذا الزمان، ولا يصحُّ أن يقود العالم اليوم مَن له حظ من التديُّن والاستقامة، فشكَّكوا في صلاحية قيادة وأحكام الإسلام للسياسات والحكومات، وإدارة فنون الاقتصاد وصورها.

وشكَّكوا أيضًا في مصداقية العدل الإسلامي وأنه ظلم المرأة ولم يوفِّها حقَّها، فابتكروا قضايا ومشكلات للمرأة المسلمة ليس لها في الحق نصيب، ولكنه جهل الأمة بحقيقة دينها وشريعة ربها ونبيها – صلَّى الله عليه وسلَّم – وزجُّوا بها في ميادين الرجال والأعمال والسياسة والقضاء، وقالوا: لقد حرَّرنا هذه المرأة التي ظُلِمت، وجرَّدوها من لباس حجابها وحيائها، وقالوا: قدَّمنا المرأة خطوة للأمام، وصدَقوا؛ لأنهم قدَّموها إلى الهاوية والرذيلة والفساد الأخلاقي والديني، ومن ثَمَّ سموا ذلك تقدُّمًا وتحرُّرًا، ليخدعوا السُّذَّج والرِّعَاع، ومَن لا خلاق لهم في الدين ولا علم ولا بصيرة.

ولم يكتفوا بذلك، ولكنهم قاموا بحروبٍ متنوِّعة مختلفة يمكن تلخيصها في هذه النقاط:

١- التواطؤ على إسقاط الخلافة الإسلامية وتقسيم العالم الإسلامي إلى دويلات صغيرة.

ولكن السؤال الآن: من أين تبدأ العودة إلى الله؟ ومن أين تبدأ هذه الهداية؟ ومن أين يبدأ الإصلاح والتغيير؟ نقول أولاً: إن حسن كلِّ نهاية أصله صلاح كلِّ بداية.

٢- إقامة الدول الإسلامية على أساس غربي وعلماني ونظم وضعية لا تعرف الإسلام.

٣- فتح الانتشار التغريبي والتنصيري أمام المستشرقين والمنصِّرين للتشكيك في الإسلام وعقيدته وشريعته، ومن ثَمَّ زعزعة الإسلام في نفوس المسلمين.

٤- إقامة دولة إسرائيل المزعومة على أرض فلسطين والقدس ثم ما حولها من الدول، وذلك من خلال نشر الماسونية السرية والروتاري والليونز لإحكام السيطرة على بلاد المسلمين.

٥- إحياء الثقافات التاريخية البائدة؛ كالفرعونية والإغريقية والرومانية، والعمل على تمجيدها والافتخار بتراثها وحضارتها، مع تشويه الثقافة الإسلامية ورموزها على طول التاريخ[٢].

هذه أهمُّ وأبرز النكبات التي أفرزها التآمُر الصليبي والصهيوني على بلاد الإسلام والتوحيد؛ لإحكام السيطرة عليها، ومن ثَمَّ العبث بمقدراته وثرواته ونفطه وخيراته.

٣- صيحة الحق:

وبعد كلِّ هذا الذي أشرنا إليه وأوضحناه من حال الأمة وواقعها، وحال أعداء الأمَّة في تكالبهم على الأمَّة والعبث بمقدَّراتها وعقائدها، علينا أن نعلم أن كلَّ هذا لا يجعلنا نشرد بعيدًا، ولا أن نورث القلوب يأسًا وقنوطًا.

ولكني أقول: ما زالت هناك صيحة الحق تعلو على كلِّ الأصوات، وتنادي بالعودة الصادقة إلى الأصالة الإسلامية وأصولها من الكتاب والسنة بمنهج وفهم سلف الأمة الصالحين، وإلى منابع السعادة، ومبادئ الرفعة والسيادة والتمكين، وتنادي أيضًا بحتمية التغيير والإصلاح لواقعنا المعاصر، في كلِّ مناحي الحياة، ومجالات الإدارة والاقتصاد على الأخص، وتنادي أيضًا بجَعْلِ الإسلام ومنهاجه القرآن هو الدستور الأعلى للأمَّة ومنهاجها، كما كان في عهد النبوَّة المحمدية، والخلافة الإسلامية الراشدة على مرِّ القرون.

نعم، لقد آنَ الأوَان أن تعود أمَّة التوحيد والإسلام إلى شريعة ربها، وأن تعود إلى سنَّة نبيِّها، وإلى القرآن دستورها، وأن تشعل الإيمان المخدَّر في القلوب الغافلة، وأن تغرسه في الأجيال الصاعدة؛ لتكون أهلاً لحمل رسالة الإسلام والهدى، ولتبليغ مبادئها لكل العالمين، لا بُدَّ لنا من هذه العودة الصادقة الجادَّة، ولا بُدَّ لنا كذلك من اتِّخاذ الأسباب الموصلة إليها، الهادية إلى طريقها، لماذا؟

لأن الأمة الإسلامية فرَّت فرارًا كبيرًا إلى كلِّ ما يبعدها عن هدى الله - تعالى - وقرآنه، وعن هدي رسولها - صلَّى الله عليه وسلَّم - وسنَّته، وعن طريق عزِّها وشرفها وسيادتها، لقد جرَّبت الأمَّة كلَّ ألوان الفرار وأنواعه، حتى صارت إلى ما هي عليه الآن من الذل والاستكانة والاستعباد. لقد فرَّت أمَّتنا إلى الفاحشة والعري والزِّنا، وفرَّت إلى الخنا والإباحية، والإسفاف بالأخلاق والتميُّع بالقِيَم، فماذا حصدت الأمة من وراء ذلك؟ ما حصدت إلا ضياع الأعراض، وانتهاك الحرمات، وفساد الأخلاق وانحلالها، وانتشار الفواحش والعري علنًا، وتمرُّد الأجيال، وانتشار الأوبئة والأمراض الخبيثة؛ كالزهري والسيلان المنوي، وأخطرها مرض الإيدز المدمِّر، والذي لا يزال الطب الحديث عاجزًا عن معرفة طرق الشفاء منه.

وفرَّت الأمة كذلك إلى التعامل الربوي وإعلان الفوائد المحرَّمة، والإسهام في البورصات العالمية والاستثمارية، فما حصدت إلا انتشار الفقر والبطالة بين الأجيال المتلاحقة، وما حصدت إلا انتشار الفساد الاقتصادي والسرقة المعلنة في مقدَّرات الأمة وثرواتها وممتلكاتها. وفرَّت الأمَّة أيضًا إلى تحكيم القوانين الوضعية المستوردة، فما حصدت إلا ضياع نعمة الأمن والأمان، وظهور الحرام بكلِّ صُوَره وأشكاله، من أَخْذِ الرشوة، والسرقة، وشهادة الزور، وأكل الربا، وأكل أموال الناس بالباطل، وما حصدت إلا استعباد الأمم الكافرة لها، وتحكُّمها فيها، وإدارة شؤونها وحياتها ومقدَّراتها، والعبث بأمنها وأخلاقها وعقيدتها، حتى صارت الأمة قصعة مستباحة لكلِّ أحد، وغنيمة مشبعة، ولعبة مسلية بأيدي العابثين. الآن وبعد هذه الهوَّة الكبيرة من الانحراف والضياع، والذلَّة والهوان، فقد آنَ الأوان لأمَّة الإسلام أن تفرَّ إلى الله حقَّ الفرار، وأن تعتصم به حقَّ الاعتصام؛ كما قال – سبحانه –: {فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ} [الذاريات: ٥٠]. نعم، جرَّبت أمَّتنا كلَّ ألوان الفرار فلم تجدِ ولم تهدِ، فلتجرِّب مرَّة الفرار إلى ربها وقرآنها، ولتجرِّب الفرار إلى سنَّة نبيِّها وشريعتها، وسترى النتائج الكريمة بعد ذلك.

إن الجاهلية الأولى ملكت أصحابها وحكمتهم ردحًا من الزمان، حتى بُعِث لَبِنَة التمام، ومسك الختام، محمد – عليه الصلاة والسلام – فنبذوا الجاهلية وراء ظهورهم، بعد أن ذاقوا حلاوة الإيمان، وبعد أن فرُّوا إلى ربهم، وإلى الإيمان والتصديق والتسليم لنبيِّهم، فماذا كانت النتيجة؟ كانت النتيجة أنهم أصبحوا سادة وقادة، وصاروا أعزة بعد ذلَّة، وأصحاب علم وبصيرة بعد غفلة وجهالة، وسادة ملك وأمَّة، بعد تشتُّت وفرقة، والتاريخ الإسلامي ثري بهذه الحقائق، والقرآن يحدثنا عن ذلك فيقول – تعالى –: {وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ} [آل عمران: ١٠٣].

ولكن السؤال الآن: من أين تبدأ العودة إلى الله؟ ومن أين تبدأ هذه الهداية؟ ومن أين يبدأ الإصلاح والتغيير؟ نقول أولاً: إن حسن كلِّ نهاية أصله صلاح كلِّ بداية، فالبدايات هي محاسن النهايات، فمَن حسنت بدايته، كملت نهايته وخاتمته بالحسن والصلاح.

إنه لا بُدَّ لنا ولأمَّتنا من البداية الصحيحة لطريق الهداية والإسلام، حتى تثبت أقدام الإسلام، وتصلح أمَّة التوحيد والهدى، بترسيخ عقائدها، وتهذيب أخلاقها، وتحكيم شريعتها، وحتى ترفع ألويتها، وتعيد مجدها وحضارتها، وإن بداية الهداية، وأصل التغيير والإصلاح لا تأتي من الخارج، كلاَّ، بل من الداخل؛ وهذا مصداق قول الله – تعالى –: {إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ} [الرعد: ١١]، وإن هذه البداية والعودة لا يحكمها أمر واحد فقط، بل إنها تقوم على جملة مترابطة من المبادئ والمرتكزات، والأصول والمقدمات.

ثانيًا: وجوب العودة إلى هدي الكتاب والسنة بمنهج السلف:

فممَّا لا شك فيه أن الأمَّة الإسلامية في حاجة ماسَّة إلى الهداية إلى معالم الشرع وطرق الهداية التي أرادها الله – تعالى – منها، وإن بداية الهداية لهذه الأمة تكمن في العودة إلى هدي الكتاب والسنَّة عودة صادقة، والاعتصام بحبلهما على هدي سلف الأمة – عليهم رضوان الله – فمتى عدنا إلى الكتاب والسنة فزنا وأفلحنا، ومتى أعرضنا عنهما ضللنا وشقينا، وما كلُّ ما يحدث لنا اليوم إلا من جرَّاء الإعراض والصد عن هدى الوحيين الصافيين، وصدق الله إذ يقول: {فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلاَ يَضِلُّ وَلاَ يَشْقَى * وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا * قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى} [طه: ١٢٣– ١٢٦].

إن العودة إلى لزوم هدي الكتاب والسنة في كلِّ مجالات الحياة ليست تطوُّعًا ولا نفلاً نتقرَّب بـه إلى الله بأدائـه، كـلا، بـل هـذه العودة فرضٌ على كلِّ مسلم مكلَّف بالغ عاقل، سواء أكان رجلاً أم امرأة. ولنكن على يقين كامل، وثقة مؤكَّدة، أنه لا عزَّ لأمتنـا ولا نصر لها ولا كرامة إلا بهذه البداية، وإلا بهذه العودة الجادة إلى الله – سبحانه – وإلى رسوله – صلَّى الله عليـه وسلَّم – ولنعلم أنه لن يصلح آخـر هـذه الأمـة إلا بمـا صلح بـه أولهـا، فلنسـرع الخطـا بـالعودة إلى القـرآن والسـنة، وإلى الاسـتجابة لأحكامها؛ فإن فيهما الخير والهداية لنا إن أردنا ذلك. إن الكتاب والسنة أصلان كبيران لهذا الدين؛ لأنهمـا ركـن مـن أركـان الإيمان، فمَن كفر بالكتاب أو بالسنة فقد كفر بالإسلام كله، فعلى كلِّ مسلم أن يؤمن بالكتاب والسنة، وأن يعظمهما، ويجلَّهما ويخدمهما؛ قال – تعالى –: {ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ} [الحج: ٣٢].

كما أنه يجب على كلِّ مسلم الإذعان لله ورسوله، والاعتقاد بوجوب التزام الكتاب والسنة، ووجوب متابعـة الـنبي – صلَّى الله عليه وسلَّم – كما قال – تعالى –: {فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُوا فِـي أَنْفُسِـهِمْ حَرَجًـا مِمَّـا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا} [النساء: ٦٥].

ومن هنا فإن الواجب على المسلم رجلاً كان أو امرأة أن يعلم العلم اليقيني بوجوب أن يتقيَّد في كلِّ حركة مـن حركاتـه، وسـكنة من سكانته، ونفَس من أنفاسه، بالكتاب والسنَّة التي جاء بها النبي المصطفى – صلَّى الله عليـه وسلَّم – وقـد حضَّـتْ نصـوص كثيرة في الكتاب والسنة على وجوب الالتزام بهما. فمن آيات القرآن في ذلك: قوله – تعالى –: {أَطِيعُوا اللَّـهَ وَأَطِيعُـوا الرَّسُـولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ} [النساء: ٥٩]. وقوله – تعالى –: {وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ} [الحشـر: ٧]. وقوله – سبحانه –: {وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُوا} [آل عمران: ١٠٣]. وقوله – عزَّ وجلَّ –: {قَدْ جَـاءَكُمْ مِـنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ * يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلاَمِ} [المائدة: ١٥– ١٦]. وقولـه – تعـالى –: {كِتَـابٌ أَنْزَلْنَـاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الأَلْبَابِ} [ص: ٢٩]. قال الحسن: تدبُّر آياته: اتِّباعه والعمل بعلمه.

أمَّا عن نصوص السنة النبوية فمن ذلك ما يلي: روي البخاري عن ابن مسعود – رضي الله عنه – قال: "أحسـن الحـديث كتـاب الله، وأحسن الهدى هدي محمد – صلَّى الله عليه وسلَّم – وشر الأمور محـدثاتها، وإن مـا توعـدون لآتٍ ومـا أنـتم بمعجـزين". وروي الترمذي عن المقدام بن معد يكرب رفعه: ((ألاَ هل عسى رجل يبلغه الحديث عنِّي، وهـو متَّكـئ علـى أريكتـه فيقـول: بيننا وبينكم كتاب الله؛ فما وجدنا فيه حلالاً استحللناه، وما وجدنا فيه حرامًـا حرَّمنـاه، وإن مـا حـرَّم رسـول الله كمـا حـرَّم الله)). ولأبي داود: ((ألاَ وإني أُوتِيت الكتاب ومثله معه، ألاَ يوشك رجل شبعان على أريكته...)) الحديث. وفي خطبة الـنبي – صلَّى الله عليه وسلَّم – في حجة الوداع حث على التمسك بالكتاب والسنة حيث قال: ((وقد تركت فـيكم مـا إن اعتصـمتم بـه فلن تضلُّوا أبدًا، أمرًا بينًا: كتاب الله، وسنة نبيه))؛ رواه مالك. وذِكْرُ النصوص في ذلك أمر يطول إيراده، فلنكتـف بمـا أردنـا إيضاحه وبيانه، والله المستعان.

إذًا؛ فالإسلام في البداية والنهاية هو التسليم للكتاب والسنة، والكتاب والسنة فيهما بيان كل شيء ممَّا يحتاجه المكلَّف؛ قال – تعالى – عن القرآن: {وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ} [النحل: ٨٩]، وقال – سبحانه وتعالى –: {وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ} [يوسف: ١١]، وقال – تعالى –: {وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ} [النحل: ٤٤]. ذلك أن القرآن الكريم مشتمِل على كلِّ ما يهمُّ الناس في معاشهم ومعادهم، عقيدة وعبادة وسلوكًا، على المستوى الفردي والجماعي، المحلي والعالمي، وذلك في شتَّى المجالات الثقافية والاجتماعية، والاقتصادية والسياسية والحربية وغيرها، وقد بيَّنا ذلك في كتاب "مجالات الدعوة في القرآن وأصولها" وفصَّلنا النصوص القرآنية التي تدعو إلى شتَّى هذه المجالات، الإنسانية والعقَدِيَّة والتشريعية والأخلاقية، فليراجع في مكانه.

إذًا؛ فالقرآن تبيانٌ لكلِّ شيء، وهذا التبيان القرآني قد يكون بالنص والتصريح، وقد يكون بالإشارة والتلميح، وهذا الأمر ضَمِنَ للقرآن استمرارية العطاء للبشرية، وصلاحية الدين الإسلامي لكلِّ زمان ومكان، فليس بعده دين يكمله أو ينسخه؛ كما قال – سبحانه –: {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا} [المائدة: ٣].

إن طريق العودة بالأمَّة الإسلامية إلى الكتاب والسنة هو الطريق القويم والانطلاقة الكبرى نحو البناء والتغيير، والعودة إلى الكتاب والسنة يجب أن تكون حقًّا وصدقًا، ليست عودة الكاذبين. لقد قامت دولة الإسلام الأولى في مسيرة الإسلام يوم أن حقَّق جيل الصحابة – رضي الله عنهم – حقيقة الاعتصام والتمسُّك بالكتاب والسنَّة في كل شؤون حياتهم، ففتح الله لهم كنوز الأرض ووصلوا مشارق الأرض ومغاربها، حاملين دعوة الحق والهدى. وتأخر المسلمون عن ركب الحضارة والبناء لما تخلوا عن هذا الطريق، وصارت الدولة لأعدائهم لما ضلوا سواء السبيل.

نكرِّر القول فنقول: إن العودة إلى منهج الله – تعالى – ليست تطوُّعًا نتقرَّب به، وإنما هي فرض عين على كل مسلم مكلف على وجه الأرض وشريعة ماضية إلى يوم القيامة، شريعة مَن فرَّط في حملها بحقِّها فلا بُدَّ أن يقع في دائرة السنن الربانية؛ كما قال – تعالى –: {وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لاَ يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ} [محمد: ٣٨].

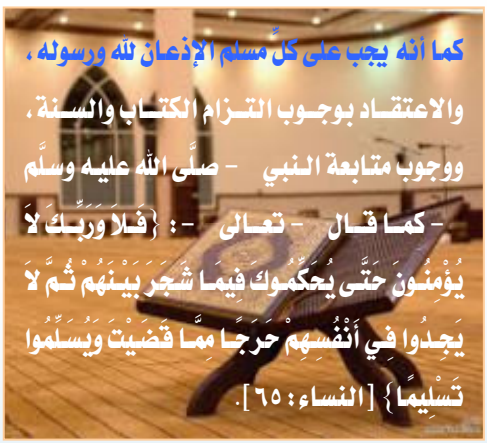

---

[١] "ماذا خسر العالم": (٢٢٩).

[٢] "العالم الإسلامي والمكائد الدولية"، فتحي يكن، وانظر: "الهوية أو الهاوية"؛ للمقدم.

طريقة أهل السنة والجماعة في الإصلاح في المجتمع

من تراث: العلامة الشيخ محمد بن صالح العثيمين رحمه الله

يرى أهل السنة والجماعة أن المجتمع الإسلامي لا يكمل صلاحه إلا إذا تمشى مع ما شرعه الله سبحانه وتعالى له، ولهذا يرون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. والمعروف: كل ما عرفه الشرع وأقره، والمنكر: كل ما أنكره الشرع وحرمه فهم يرون أن المجتمع الإسلامي لا يصلح إلا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. لأننا لو فقدنا هذا المقوم لحصل التفرق، كما يشير إليه قول الله عز وجل: (وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ) (آل عمران: الآيتان ١٠٤، ١٠٥).

وهذا المقوم وللأسف في هذا الوقت ضاع أو كاد لأنك لا تجد شخصاً يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر حتى في المحيط القليل المحصور إلا ما ندر. وإذا ترك الناس هكذا كل إنسان يعمل ما يريد تفرق الناس ولكن إذا تآمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر صاروا أمة واحدة ولكن لا يلزم إذا رأيت أمراً معروفاً أن يكون معروفاً عند غيرك، إلا في شيء لا مجال للاجتهاد فيه إنما ما للاجتهاد فيه مجال فقد أرى أن هذا من المعروف ويرى الآخر أنه ليس منه وحينئذ يكون المرجع في ذلك كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم. (فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ) (النساء: الآية ٥٩). ولكن طريقة أهل السنة والجماعة في هذا الباب العظيم الذي فضلت فيه هذه الأمة على غيرها أنهم يرون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من مقومات المجتمع الإسلامي ولكنه يحتاج إلى أمور:

أولاً: أن يكون الإنسان عالماً بالحكم بحيث يعرف أن هذا معروف وأن هذا منكر، أما أن يأتي عن جهل ثم يأمر بشيء يراه معروفاً في ظنه وهو ليس بمعروف فهذا قد يكون ضره أكبر من نفعه، لذلك لو فرضنا شخصاً تربى في مجتمع يرون أن هذه البدعة معروف ثم يأتي إلى مجتمع جديد غيره يجدهم لا يفعلونها فيقوم وينكر عليهم عدم الفعل ويأمرهم بها فهذا خطأ، فلا تأمر بشيء إلا حيث تعرف أنه معروف في شريعة الله، ليس بعقيدتك أنت وما نشأت عنه فلابد من معرفة الحكم وأن هذا معروف حتى تأمر به وكذلك المنكر.

ثانياً: لابد أن تعلم أن هذا المعروف لم يفعل، وأن هذا المنكر قد فعل، وكم من إنسان أمر شخصاً بمعروف فإذا هو فاعله فيكون في هذا الأمر عبئاً على غيره وربما يضع ذلك من قدره بين الناس. وإذا رأينا هدي النبي صلى الله عليه وسلم ، وجدنا أن هذه طريقته دخل رجل يوم الجمعة والنبي صلى الله عليه وسلم ، يخطب وجلس فقال النبي صلى الله عليه وسلم ، "أصليت؟" قال لا. قال: "فقم فصل ركعتين" صلاة الركعتين لداخل المسجد من المعروف ولا شك ولكن الرسول، عليه الصلاة والسلام ما أمره به مباشرة حتى علم أنه لم يفعله فأنت قد تأمر هذا الرجل أن يفعل شيء، وإذا هو قد فعله فتتسبب إلى التعجل وعدم التريث وتحط من قدرك ولكن اسأل وتحقق إذا لم يفعل حينئذ تأمر به. وكذلك أيضاً بالنسبة للمعاصي فبعض الناس قد ينهى شخصاً عما يراه منكراً وليس بمنكر.

مثال ذلك:

رأيت رجلاً يصلي الفريضة وهو جالس فنهيته بأن ليس له حق أن يصلي وهو جالس. فهذا غير صحيح لكن اسأل أولاً لماذا جلس، قد يكون له عذر في جلوسه وأنت لا تعلم حينئذ تكون متسرعاً ويكون ذلك ناقصاً من قدرك، هذا أمر أيضاً لابد منه: أن تعرف الحكم الشرعي، وأن تعرف الحال التي عليها المأمور والمنهي حتى تكون على بصيرة من أمرك.

ثالثاً: أن لا يترتب على فعل المعروف ما هو منكر أعظم مفسدة من منفعة المعروف، فإن ترتب على فعل المعروف منكر هو أشد ضرراً من المنفعة الحاصلة بهذا المعروف فإن درأ المفاسد أولى من جلب المصالح، وهذه الكلمة المعروفة هي القاعدة التي دل عليها القرآن ليست أيضاً على إطلاقها أي أنه ليست كل مفسدة درؤها أولى من جلب مصلحة، بل إذا تكافئت مع المصلحة فدرء المفسدة أولى، وإذا كانت أعظم من المصلحة فدرء المفسدة أولى، والله سبحانه وتعالى يقول: (وَلا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْواً بِغَيْرِ عِلْمٍ) (الأنعام: الآية ١٠٨).
فسب آلهة المشركين كل يعلم أنه مصلحة وأن فيه خيراً لكن إذا تضمنت هذه المصلحة ما هو أنكر – وأنكر من باب التفاضل الذي ليس في الطرف الآخر منه شيء – إذا تضمن مفسدة عظيمة فإنها تترك، لأننا إذا سببنا آلهتهم ونحن نسبها بحق سبوا الله عدواً بغير علم. فهذه نقطة ينبغي أن نتفطن لها عند الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أما إذا كانت المفسدة تنغمر في جانب المصلحة، فإننا نفضل المصلحة ولا يهمنا وهذا عليه شيء كثير من أحكام الله الشرعية والكونية.
فمثلاً هذا المطر الذي ينزل وفيه مصلحة عامة لكن فيه ضرراً على إنسان بنى سقفه الآن وجاء المطر فأفسده لكن هذه المفسدة القليلة منغمرة في جانب المصلحة العامة. وهكذا أيضاً الأحكام الشرعية كالأحكام الكونية وهذا أمر ينبغي التنبه له، وهو أننا قد لا يكون من المصلحة أن ننهى عن هذا المنكر لأنه يتضمن مفسدة أكبر ولكننا نتريث حتى تتم الأمور. ولهذا جاءت الشريعة الإسلامية بالتدرج في التشريع حتى يقبلها الناس شيئاً فشيئاً، **وهكذا المنكر لابد أن نأخذ الناس فيه بالمعالجة حتى يتم الأمر هذه هي الثلاثة الأمور :**

١– العلم بالحكم .

٢– العلم بالحال .

٣– أن لا يترتب على فعل المعروف منكر أعظم مفسدة .

---

* المرجع: موقع الشيخ ابن عثيمين.

إليكم يا شباب الإسلام، وعماد الأمة، وطريق العطاء، ومعقل البناء، وجيل النصر والتمكين، إليكم هذه الكلمات، وإليكم هذه الوصايا والتوجيهات، أقدِّمها لكم؛ عسى الله - تعالى - أن ينفع بها أنفسًا، ويَهدي بها قلوبًا، ويرفع بها هِمَمًا، فاسمعوا أيُّها الشباب المسلم، وخذوا من الكلام أطيبه، ومن الحديث أصحه وأثبته. وإنِّي لأوجز مقالي ورسالتي في نقاطٍ ومَحاور محددة إليكم، فأقول:

الشباب المسلم والاستفادة بالوقت واستثماره

بقلم الشيخ عاطف الفيومي

١ - الشباب والوقت نعمتان يجب اغتنامهما:

فالشباب نعمة واختبار: فعليكم - أيها الشباب المسلم - أن تعلموا أولاً أنَّ وُجودكم في الحياة الدُّنيا نعمة من الله - تعالى - عليكم، تستوجب شكرَ الله عليها، كما قال تعالى في كتابه: (كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) [البقرة: ٢٩]، وقال تعالى: (اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ) [الروم: ٤٠]، وقال تعالى: (اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ) [الروم: ٥٤].

وأنَّ هذا الوجودَ في دار الدنيا ليس الوجود الخالد الباقي، كلاَّ، بل إنَّه وجودٌ مُؤقت وقليل، وأمَّا النعيم الحق، والخلود الدائم الباقي، فهو في الآخرة عند لقاء الله - تعالى - هنالك؛ حيث يُجازى كلُّ مكلف من الإنس والجن بعمله، ورحمة ربِّه، وقد أخبرنا الله - تعالى - عن هذا كله في كتابه، وعلى لسان رسوله محمد - صلَّى الله عليه وسلَّم - كما قال تعالى: (أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لاَ يَسْتَوُونَ * أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى نُزُلاً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ * وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ * وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ) [السجدة: ١٨ - ٢٢]. كما أنَّ عليكم أن تعلموا أنَّ الشباب فترة وجزء من العمر الذي وهبه الله - تعالى - لكم، وأنَّكم محاسبون عليه، مجزيون به، مسؤولون عنه أمامَ الله - تعالى - ...

فيجب عليكم اغتنامُ هذه الدرة الثمينة من أعماركم، وشغلها بطاعة ربكم ونبيكم - صلَّى الله عليه وسلَّم - وقد جاء في الحديث: عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله - صلَّى الله عليه وسلَّم - لرجل وهو يعظه: ((اغتنم خمسًا قبل خمس: شبابك قبل هَرَمِك،

وصحتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك))؛ [رواه الحاكم، وقال: "صحيح على شرطهما"، وصححه الألباني: ١٠٧٧ في صحيح الجامع].

وعن أبي بَرْزَة – رضي الله عنه – أنَّ رسولَ الله – صلَّى الله عليه وسلَّم – قال: ((لا تزول قدما عبد يومَ القيامة حتى يُسألَ عن أربع: عن عمره، فيمَ أفناه؟ وعن علمه، ما عمل به؟ وعن ماله، من أين اكتسبه، وفيمَ أنفقه؟ وعن جسمه، فيمَ أبلاه؟))؛ [رواه الترمذي، وقال: "حديث حسن صحيح"، وصححه الألباني].

وعن معاذ بن جبل – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله – صلَّى الله عليه وسلَّم –: ((لن تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع خصال: عن عمره، فيمَ أفناه؟ وعن شبابه، فيمَ أبلاه؟ وعن ماله، من أين اكتسبه، وفيمَ أنفقه؟ وعن علمه، ماذا عمل فيه؟))؛ [رواه البزار والطبراني بإسناد صحيح واللفظ له، وصححه الألباني]. بل قد ورد أيضًا أنَّ في الجنة شبابًا، وكذلك كل أهلها، وأن الحسن والحسين – رضي الله عنهما – سَيِّدا شباب الجنة، ففي الحديث عن أبي سعيد الخدري وحذيفة بن اليمان، وعلي بن أبي طالب وغيرهم أنَّ النبيَّ – صلَّى الله عليه وسلَّم – قال: ((الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة))؛ [أخرجه الحاكم والترمذي، وصححه الألباني في الصحيحة، ٢/ ٤٣٨].

وهذا رسول الله – صلَّى الله عليه وسلَّم – يُخاطِب الشباب، ويُناديهم بطاعة الله – تعالى – ويعدهم بالجزاء الأوفى في جَنَّاتِ النعيم؛ ففي الحديث عن ابن عباس – رضي الله عنهما – أنَّ النبي – صلَّى الله عليه وسلَّم – قال: ((يا شبابَ قريش، احفظوا فروجَكم، لا تزنوا، ألاَ من حفظ فرجَه، فله الجنة))؛ [رواه الحاكم والبيهقي وصححه الألباني]. وفي رواية حسنة للبيهقي: ((يا فتيانَ قريش، لا تزنوا، فإنَّه من سلم له شبابه، دخل الجنة)). ألاَ فاجعلوا من شبابكم طريقًا نحو المعالي، واجعلوا من شبابكم طريقًا نحو الخير والإحسان، واجعلوا من شبابكم طريقًا نحو العز والنصر والتمكين.

٢– الحذر من إضاعة الأعمار والأوقات: واحذروا أشدَّ الحذر من هدر الشباب والعمر في غير طاعة واجتهاد، أو إضاعته في الذُّنوب والسيئات، فإنَّ الخاسر يومَ القيامة من يَجد نفسَه بلا حسنات تثقل ميزانه، فيرجو يومَها ويتمنَّى العودة إلى دار العمل، فلا يُجاب، كما أخبر الله – تعالى – عن هذا الصنف في كتابه؛ فقال تعالى: (حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ * لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ * فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلاَ أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلاَ يَتَسَاءَلُونَ * فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ * تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ) [المؤمنون: ٩٩ – ١٠٤].

كما يجب عليكم أن تعلموا أنَّ وقتكم هو رأس مالكم، فإنْ ضاع الوقت والزمان في غير فائدة وثمرة مرجوة، فقد خَسِر الإنسان جزءًا من عمره وشبابه؛ لأنَّ استثمار الأوقات والساعات في طاعة الله ورضاه وعبادته، هو الخير كله، وهو السعادة كلها، كما أنَّ إضاعتها هو الغبن كله؛ فعن ابن عباس قال: قال رسول الله – صلَّى الله عليه وسلَّم –: ((نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ))؛ [رواه البخاري].

وإذا تدبرنا آياتِ القرآن رأينا أنَّ الله قد أقسم بالليل والنهار، والفجر والصبح والضحى، والعصر وغيرها من الأوقات من الليل والنهار، وما ذاك إلا لنعلمَ آيات قدرته في الخلق، واستثمار هذه الأوقات فيما شرعه – سبحانه – قال تعالى: (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً

سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ) [آل عمران: ١٩٠ – ١٩١]. وقد سأل الفضيل بن عياض رجلاً، فقال له: كم أتت عليك؟ قال: ستون، قال: فأنت منذ ستين سنة تسير إلى ربك، توشك أن تبلغ، فقال الرجل: إنا لله وإنا إليه راجعون.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْيَوْمَ أَسْرَعُ ذَاهِبٍ .... وَأَنَّ غَدًا لِلنَّاظِرِينَ قَرِيبُ

ومما يؤسف القلبَ أنَّ كثيرًا من المسلمين اليومَ أصبح لا يهتم بوقتِه، وصار يهدره في غير فائدة مرجُوَّة، أو ربما في كثير من الذنوب والسيئات، والجلوس في أماكن الفارغين والمقاهي، أو مع رفقة السوء والغيبة والنميمة، أو يقطع النهار والليل أمامَ بعض القنوات والمواقع الإباحية، والتي فيها من مشاهد العُري والفاحشة والزنا ما الله به عليم، وفيها من إماتة الغَيْرة والرجولة والحياء ما فيها، وفيها من نشر الفاحشة والمنكرات بين المسلمين ما فيها، وهذا أمرٌ قبيحٌ في حق المسلم العاقل. قال علي – رضي الله عنه –: "إنَّما أخشى عليكم اثنتين: طول الأمل، واتباع الهوى، فإن طولَ الأمل يُنسي الآخرة، وإن اتباع الهوى يصدُّ عن الحق". وقال عون: "كم من مُستقبلِ يومٍ لا يستكمله، ومُنتظرٍ غدًا لا يبلغه، لو تنظرون إلى الأجل ومسيره، لأبغضتم الأمل وغروره". وقال الشاعر:

دَقَّاتُ قَلْبِ الْمَرْءِ قَائِلَةٌ لَهُ .... إِنَّ الْحَيَاةَ دَقَائِقٌ وَثَوَانِي

إنَّ الغفلةَ عن الوقت والاستفادة من الأزمان خطرٌ عظيم؛ لأنَّ الغفلة آفةٌ قاتلة، وداءٌ عُضال فتَّاك، وطريق يكثُر فيه السالكون إلاَّ مَن رَحِم الله – تعالى – دبَّ هذا الداء في جَسَد الأمَّة الإسلامية منذ عدَّة قرون، وأقعَدها عن سبيلها، وأوْهن مِن قُواها، وشغلها أيَّما شغل عن رسالتها وغايتها في هذه الحياة الدُّنيا، والمتأمِّل في آيات القرآن يرى أنَّ الله – تعالى – قد أنذر وحذَّر مِن هذا الداء المهلِك، الذي أصابَ الأُمم، وأقعدَها عن السَّبيل الأَمَم، بل وحلَّ بها عقاب الله – تعالى – المعجَّل، كما قال – تعالى – في كتابه لرسوله – صلَّى الله عليه وسلَّم –: (لِتُنذِرَ قَوْمًا مَا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ * لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ) [يس: ٦ – ٧].

٣– حال السلف مع الوقت وحفظه: وقد كان سلفنا الصالح يَحرصون على حفظ أوقاتِهم وأيامهم فيما يرجع عليهم بالفائدة في الدُّنيا والآخرة، فهذا أبو الوفا بن عقيل – رحمه الله – يقول: "إنِّي لا يَحل لي أنْ أضيع ساعةً من عمري، حتى إذا تعطل لساني عن المذاكرة، وتعطل بصري عن المطالعة، أعملت فكري في حال راحتي، وأنا منطرح، فلا أنهض إلا وقد خطر لي ما أسطره".

وكان ابن الجوزي – رحمه الله – إذا دخل عليه مَن يظن فيه تضييع وقته، كان يشغل نفسه بالقيام ببَرْي الأقلام، وقص الأوراق حتى لا يضيع وقته. وقال ابن مسعود – رضي الله عنه –: "ما ندمت على شيء ندمي على يوم غربت شمسه، نقص فيه أجلي، ولم يزدد فيه عملي". وقال ابن القيم – رحمه الله –: "إضاعة الوقت أشد من الموت؛ لأنَّ إضاعة الوقت تقطعك عن الله والدار الآخرة، والموت يقطعك عن الدنيا وأهلها". وقال الحسن البصري: "لقد أدركت أقوامًا كانوا على أوقاتهم أشدَّ حرصًا منكم على أموالكم".

٤– معرفة الصحابة غايتهم ورسالتهم: ولا تنسوا – أيها الشباب – أنَّ الذين أسلموا مع رسول الله في أولِ دَعوته، والذين نصروه وهاجروا وجاهدوا معه كان جُلُّهم من الشباب. فأبو بكر الصديق كان أصغرَ من رسول الله – صلَّى الله عليه وسلَّم – وكذلك مُصعب بن عمير من الشباب، وعلي بن أبي طالب، والأرقم بن أبي الأرقم، وغيرهم كثير، ممن أسلموا في أول العهد المكي، ثم انطلقوا يَحملون رسالةَ التوحيد والعبودية لله – تعالى – لكل العالمين، وكانت العبادة وتعبيد الناس لله – تعالى – هي الغاية والمنطلق عندهم، ففتحوا البلادَ شرقًا وغربًا بالإسلام والإيمان،

يبلغون رسالاتِ الله ويَخشونه، ولا يَخشون من أحدٍ سواه – تعالى – لأنَّهم علموا غايتهم ورسالتهم في الحياة، وعلموا لماذا أوجدهم الله – تعالى – وعلموا صدق ما أعد لهم في دار كرامته وفي جنته في الآخرة، فانطلقوا نحو غايتهم ورسالتهم، وقد أخبر الله عنهم في كتابه الخالد، فقال تعالى: (وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا * مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً * لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا) [الأحزاب: ٢٢ – ٢٤].

ولما ثبت النبي – صلَّى الله عليه وسلَّم – ومن معه من جيل الدعوة الأول، وصبروا على الكيد والمكر، والصد والاستهزاء، والإعراض والإغراء، وتركوا كلَّ متاعهم وأموالهم، بل نساءهم وأبناءهم وعشيرتهم لله ورسوله، وكانوا مثالاً واقعيًّا للثبات على المبادئ والحق، والتضحية الصادقة من أجله ونصرته، لما كان هذا حالَهم، مَكَّن الله لهم في الأرض، وأَذِنَ لهم بالتمكين الموعود لأهل الحق والإيمان، والتوحيد والمتابعة، فلقد أذن لهم بالهجرة إلى المدينة ولرسوله؛ تَمهيدًا لعالم ومجتمع إسلامي جديد، مجتمع لا يعرف الجاهلية، ولا يعرف الشرك والوثنية، ولا يعترف بألوهية المخلوقات، ولا بفساد المعاملات، ولا بقيام الحروب والعداوات من أجل لا شيء، ولا يستمد شرائعه وأخلاقه من تصوُّرات بشرية، أو عقائد وأفكار رومانية أو نصرانية، مجتمع لا تتملقه النفوس الدنيئة من أصحاب الشهوات الرخيصة.

لقد أزالت الهجرةُ كلَّ ذلك، فالهجرة تَجبُّ ما قبلها، لقد قام صرحٌ شامخ للإسلام ودعوته بعد عِدَّة محاولات للهجرة والبناء للحبشة، وزالت غربةُ الإسلام والرسالة الأولى، ولم تعُد غريبة على أرض الجزيرة، بل ظهرت كالشَّمس المنيرة في رابعة النهار، وعلا صوتُ الحق والإيمان على أبواق الجاهلية الخاوية، زالت الغربة بهذا التمكين، الذي قام على أكتاف خِيَرَةِ البشر بعد الرُّسل، إنَّهم أصحاب الرسول وأتباعه، الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه، فمنهم مَن قضى نَحبه، ومنهم من ينتظر، وما بدلوا تبديلاً، وكما جاء في الحديث النبوي: ((بدأ الإسلام غريبًا، وسيعود غريبًا، فطوبى للغرباء)).

فالمقصود: أنَّ الصحابةَ الكرام أدركوا حقيقةَ وجودهم في الحياة، فقاموا بغايَتِهم خيرَ قيام، وجاهدوا في الله خَيْرَ جهاد، وهم القدوة والأسوة لنا في ذلك، فعلينا أن نَجعلهم مثلاً أعلى بعد رسول الله – صلَّى الله عليه وسلَّم – بهم نحتذي، وبهم نقتدي. وفرقٌ بعدَ هذا بين شبابٍ لا يعلمون لهم في هذه الحياة غايةً يسعَوْن إليها، ويَجدُّون من أجلها، أو يَجعلون لهم غاياتٍ وأهدافًا خسيسة هزيلة، من العشقِ المُحرَّم مع النساء، واللهو والطرب، والتسكُّع في الطرقات بلا رقيب، وحصول المعاكسات والعبارات القاتلة لمعاني الإيمان والحياء، فرق بين هؤلاء وبين شَبابٍ عَلِموا غايتَهم ورسالتَهم، فأعلوا الهِمَم إليها، وشَمَّروا عن ساعد الجد والعمل لتحقيقها، ولا ريب أنَّ هؤلاء هم الفائزون الرابحون في خاتمة المطاف؛ (وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ) [العنكبوت: ٦٩].

وإنَّ من أجَلِّ ما تستفاد به الأوقات والأزمان أن يعلم المسلم غايتَه وأهدافه في حياته، فيعمل على تحقيقها، والقيام بحَقِّها، وشغل الوقت والجوارح بها. والعبادة: هي غايتنا الكبرى، ورسالتنا في الحياة، وفي العبادة شغلٌ أيّما شغل، لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

* * *

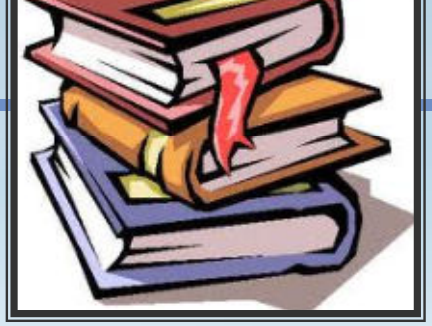

قطوف من ...

ينابيع العلم والإيمان

إعداد: مجلة مشكاة النبوة

إخراج الزكاة من أوامر القرآن

(خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاَتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) [التوبة: ١٠٣].

من أدعية النبي صلى الله عليه وسلم جاء في الحديث دعاء النبي ﷺ: "اللهم آت نفسي تقواها، وزكِّها أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها".

الطريق إلى محبة الله

عن أبي هريرة – رضي الله عنه – أن النبي ﷺ قال: "قال الله تعالى: من عاد لي ولياً فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إليَّ عبدي بشيءٍ مما افترضته عليه، وما يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله الذي يمشي بها، ولئن سألني لأعطينه ولئن استعاذني لأعيذنَّه، وما ترددتُ عن شيءٍ أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن يكره

فضل الصبر على البلاء

عن عائشة – رضي الله عنها – أنها سألت رسول الله ﷺ عن الطاعون: "فأخبرها أنه كان عذاباً يبعثه الله – تعالى – على من يشاء، فجعله الله تعالى رحمةً للمؤمنين، فليس من عبدٍ يقع في الطاعون فيمكث في بلده صابراً محتسباً يعلم أنه لا يصيبه إلا ما كتب الله له إلا كان له مثل أجر الشهيد" رواه البخاري.

* * *

ثمرة اليقين في القلب

قال الإمام ابن القيم – رحمه الله –: "ومتى وصل اليقين إلى القلب امتلأ نورا وإشراقا، وانتفى عنه كل ريب وشك وسخط وهم وغم، فامتلأ محبة لله، وخوفا منه، ورضي به، وشكرا له، وتوكلا عليه، وإنابة إليه". وقال: "ليس للعبد شيء أنفع من صدقه ربه في جميع أموره".

من آفات الصوفية الزهد في طلب علم الشريعة

روى ابن الجوزي عن جعفر الخالدي قال: "لو تركني الصوفية لجئتكم بأسانيد الدنيا، لقد مضيت إلى عباس وأنا أحدث، فكتبت عنه مجلسًا واحدًا، وخرجت من عنده، فلقيني بعض من كنت أصحبه من الصوفية، فقال: "إيش هذا معك"؟ فأريته إياه، فقال: "ويحك تدع علم الخِرَق، وتأخذ علم الورق، ثم مزَّق الأوراق، فدخل كلامه في قلبي، فلم أعد إلى عباس... ورأيت محبرة مع بعض الصوفية، فقال له صوفي آخر: استر عورتك ! وقد أنشدوا للشبلي:

إذا طالبوني بعلم الورق ... برزت عليهم بعلم الخرق

وهذا من خفي حيل إبليس، (وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ)، وإنما فعل وزينه عندهم لسببين:

أحدهما: أنه أرادهم يمشون في الظلمة.

الموت وأنا أكره مساءته".

الإسناد من الدين

جاء في صحيح الإمام مسلم؛ عن عبدان بن عثمان قال: سمعت عبد الله بن المبارك يقول: "الإسناد من الدين ولولا الإسناد لقال من شاء ما شاء".

* * *

والثاني: أن تصفح العلم كل يوم يزيد في علم العالم، ويكشف له ما كان خفي عنه، ويقوي إيمانه ومعرفته، ويريه عيب كثير من مسالكه، خصوصاً إذا تصفح منهاج الرسول صلى الله عليه وسلم، والصحابة، فأراد إبليس سد تلك الطرق بأخفى حيلة، فأظهر أن المقصود العمل، لا العلم لنفسه، وخفي على المخدوع أن العلم عمل وأي عمل، فاحذر من هذه الخديعة الخفية، فإن ال

علم هو الأصل الأعظم، والنور الأكبر، وربما كان تقليب الأوراق أفضل من الصوم والصلاة، والحج والغزو، وكم من معرض عن العلم يخوض في عذاب من الهوى في تعبده، ويضيع كثيراً من الفرض بالنفل، ويشتغل بما يزعمه الأفضل عن الواجب، ولو كانت عنده شعلة من نور العلم لاهتدى، فتأمل ما ذكرت لك ترشد إن شاء الله تعالى".

من جميل الحكم والأمثال

الغنى والفقر: القناعة والطمع هما الغنى والفقر، فربَّ فقير هو أغنى منك، وربَّ غني هو أفقر منك ..

الاعتدال في الحب والكره: لا تفرط في الحب والكره، فقد ينقلب الصديق عدوّا والعدو صديقاً.

العاقلة والحمقاء: المرأة العاقلة ملك ذو جناحين تطير بزوجها على أحدهما، والمرأة الحمقاء شيطان ذو قرنين تنطح زوجها بأحدهما.

العاقل والأحمق: العاقل يشعل النار ليستدفئ بها، والأحمق يشعلها ليتحترق بها.

وأنذر عشيرتك الأقربين

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ – رضى الله عنهما – قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ (وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ) صَعِدَ النَّبِىُّ – صلى الله عليه وسلم – عَلَى الصَّفَا فَجَعَلَ يُنَادِى: «يَا بَنِى فِهْرٍ، يَا بَنِى عَدِىٍّ».

لِبُطُونِ قُرَيْشٍ حَتَّى اجْتَمَعُوا، فَجَعَلَ الرَّجُلُ إِذَا لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَخْرُجَ أَرْسَلَ رَسُولاً لِيَنْظُرَ مَا هُوَ، فَجَاءَ أَبُو لَهَبٍ وَقُرَيْشٌ فَقَالَ:

«أَرَأَيْتَكُمْ لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلاً بِالْوَادِى تُرِيدُ أَنْ تُغِيرَ عَلَيْكُمْ، أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِىَّ». قَالُوا نَعَمْ، مَا جَرَّبْنَا عَلَيْكَ إِلاَّ صِدْقاً. قَالَ «فَإِنِّى نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ».

فَقَالَ أَبُو لَهَبٍ تَبًّا لَكَ سَائِرَ الْيَوْمِ، أَلِهَذَا جَمَعْتَنَا فَنَزَلَتْ (تَبَّتْ يَدَا أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ * مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ). رواه البخاري.

حكم الانتماء إلى أحزاب وجماعات دينية؟ ونقد العلماء؟

من تراث العلامة عبد العزيز بن باز رحمه الله

١- السؤال: بماذا تنصحون الدعاة حيال موقفهم من المبتدعة؟ كما نرجو من حمل سماحتكم توجيه نصيحة خاصة إلى الشباب الذين يتأثرون بالانتماءات الحزبية المسماة بالدينية؟

الجواب: نوصي إخواننا جميعا بالدعوة إلى الله سبحانه بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن كما أمر الله سبحانه بذلك مع جميع الناس ومع المبتدعة إذا أظهروا بدعتهم، وأن ينكروا عليهم سواء كانوا من الشيعة أو غيرهم- فأي بدعة رآها المؤمن وجب عليه إنكارها حسب الطاقة بالطرق الشرعية.

والبدعة هي: ما أحدثه الناس في الدين ونسبوه إليه وليس منه، لقول النبي صلى الله عليه وسلم: ((من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد))، وقول النبي صلى الله عليه وسلم: ((من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد)) ومن أمثلة ذلك بدعة الرفض، وبدعة الاعتزال، وبدعة الإرجاء، وبدعة الخوارج، وبدعه الاحتفال بالموالد، وبدعة البناء على القبور واتخاذ المساجد عليها إلى غير ذلك من البدع، فيجب نصحهم وتوجيههم إلى الخير، وإنكار ما أحدثوا من البدع بالأدلة الشرعية وتعليمهم ما جهلوا من الحق بالرفق والأسلوب الحسن والأدلة الواضحة لعلهم يقلبون الحق.

أما الانتماءات إلى الأحزاب المحدثة فالواجب تركها، وأن ينتمي الجميع إلى كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، وأن يتعاونوا في ذلك بصدق وإخلاص، وبذلك يكونون من حزب الله الذي قال الله فيه سبحانه في آخر سورة المجادلة: "أَلا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ" بعدما ذكر صفاتهم العظيمة في قوله تعالى: "لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ" الآية. ومن صفاتهم العظيمة ما ذكره الله عز وجل في سورة الذاريات في قول الله عز وجل: "إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ * كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ * وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ * وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ" فهذه صفات حزب الله لا يتحيزون إلى غير كتاب الله، والسنة والدعوة إليها والسير على منهج سلف الأمة من الصحابة رضي الله عنهم وأتباعهم بإحسان. فهم ينصحون جميع الأحزاب وجميع الجمعيات ويدعونهم إلى التمسك بالكتاب والسنة، وعرض ما اختلفوا فيه عليهما فما وافقهما أو أحدهما فهو المقبول وهو الحق، وما خالفهما وجب تركه.

ولا فرق في ذلك بين جماعة الإخوان المسلمين، أو أنصار السنة والجمعية الشرعية، أو جماعة التبليغ أو غيرهم من الجمعيات والأحزاب المنتسبة للإسلام. وبذلك تجتمع الكلمة ويتحد الهدف ويكون الجميع حزبا واحدا يترسم خطى أهل السنة والجماعة الذين هم حزب الله وأنصار دينه والدعاة إليه. ولا يجوز التعصب لأي جمعية أو أي حزب فيما يخالف الشرع المطهر.

٢- السؤال: صدر من سماحتكم بيان منذ أسبوعين تقريباً حول ما ينبغي للدعاة والعلماء من النقد البناء، وعدم تجرح الأشخاص، فتأوله بعض الناس على أناس معينين، فماذا ترون في هذا التأويل؟

الجواب: الحمد لله وصلى الله وسلم على رسول الله وعلى آله وأصحابه ومن اهتدى بهداه أما بعد: فهذا البيان الذي أشار إليه السائل أردنا منه نصيحة إخواني العلماء والدعاة بأن يكون نقدهم لإخوانهم فيما يصدر من مقالات، أو نصيحة، أو محاضرة، أو ندوة أن يكون نقداً بناءاً بعيداً عن التجريح وتسمية الأشخاص.

لأن هذا قد يسبب شحناء وعداوة بين الجميع، وكان من عادات النبي صلى الله عليه وسلم إذا بلغه عن بعض أصحابه شيء لا يوافق الشرع نبه عن ذلك بقوله صلى الله عليه وسلم : (ما بال أقوام قالوا كذا وكذا)، ثم يبين الأمر الشرعي عليه الصلاة والسلام. ومن ذلك أنه بلغه أن بعض الناس قال أما أنا فأصلي ولا أنام، قال الآخر: أما أنا فأصوم ولا أفطر، وقال آخر: أما أنا فلا أتزوج النساء، فخطب الناس عليه الصلاة والسلام وحمد الله وأثنى عليه ثم قال: (ما بالك أقوام قالوا كذا وكذا؟ لكني أصلي وأنام، وأصوم وأفطر، وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني).

فمقصودي هو ما قاله النبي صلى الله عليه وسلم مقصودي أن التنبيه يكون بمثل هذا الكلام، بعض الناس يقول كذا، وبعض الناس قال كذا، والواجب كذا، والمشروع كذا، يكون الانتقاد من غير تجريحٍ لأحد معين، ولكن من باب بيان الأمر الشرعي، أن الواجب كذا وأن المشروع كذا، وينبغي كذا من دون أن يقول فعل فلان، وقال فلان.

حتى تبقى المودة والمحبة بين الإخوان وبين الدعاة وبين العلماء، ولست أقصد بذلك أناساً معينين، وإنما قصدت العموم، قصدت جميع الدعاة، وجميع العلماء في الداخل والخارج، نصيحتي للجميع أن يكون التخاطب فيما يتعلق بالنصيحة والنقد من طريق الإبهام لا من طريق التعيين، إذ المقصود التنبيه على الخطأ، والغلط والتنبيه على ما ينبغي في هذا المقام من بيان الصواب، والحق، من دون حاجة إلى تجريح فلان، أو فلان هذا هو المقصود وليس المقصود أحداً معيناً بذلك دون غيره.

وفق الله الجميع.

المرجع: مجموع فتاوى ومقالات متنوعة الجزء السابع.

من وصايا لقمان ..

.. لابنه

للشيخ: محمد بن جميل زينو

قال الله تعالى : {وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ } ، هذه وصايا نافعة حكاها الله تعالى عن لقمان الحكيم :-

١- ...{يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ} إحذر الشرك في عبادة الله ، كدعاء الأموات أو الغائبين فقد قال صلى الله عليه وسلم (الدعاء هو العبادة) .

...ولما نزل الله قوله تعالى : {وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ} شق ذلك على المسلمين ، وقالوا : أينا يظلم نفسه ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (ليس ذلك ، إنما هو الشرك ، ألم تسمعوا قول لقمان لابنه :يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ} .

٢- ...{وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ} .

ثم قرن بوصيته إياه بعبادة الله وحده البر بالوالدين لعظم حقهما ، فالأم حملت ولدها بمشقة ، والأب تكفل بالإنفاق فاستحقا من الولد الشكر لله ولوالديه .

٣- ...{وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَى أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ}.

قال ابن كثير : (أي إن حرصا عليك كل الحرص أن تتابعهما على دينهما ، فلا تقبل منهما ذلك ، ولا يمنع ذلك من أن تصاحبهما في الدنيا معروفاً أي محسناً اليهما ، واتبع سبيل المؤمنين) .

أقول : ... يؤيد هذا القول النبي صلى الله عليه وسلم (لا طاعة لأحد في معصية الله ، إنما الطاعة في المعروف) .

٤- ...{يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ} . قال ابن كثير : (أي إن المظلمة أو الخطيئة لو كانت مثقال حبة خردل أحضرها الله تعالى يوم القيامة حيث يضع الموازين القسط ، وجازى عليها إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر .

٥- ...{يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ} أدها بأركانها وواجباتها بخشوع .

٦- ...{وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ} بلطف ولين بدون شدة .

٧- ...{وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ} علم أن الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر سيناله أذى فأمره بالصبر، قال صلى الله عليه وسلم : (المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم ، أفضل من المؤمن الذي لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم).

...{إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ} أي إن الصبر على أذى الناس لمن عزم الأمور.

٨- ...{وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ} قال ابن كثير: (لا تعرض بوجهك عن الناس إذا كلمتهم أو كلموك احتقاراً منك لهم ، واستكباراً عليهم، ولكن ألن جانبك وأبسط وجهك اليهم) قال النبي صلى الله عليه وسلم (تبسمك في وجه أخيك لك صدقة).

٩-...{وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا} أي خيلاء متكبراً أجباراً عنيداً ، لا تفعل ذلك يبغضك الله ، ولهذا قال {إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ} أي مختال معجب في نفسه ، فخور على غيره.

١٠-...{وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ} أي أمش مشياً مقتصداً ، ليس بالبطئ المتثبط ، ولا بالسريع المفرط ، عدلاً وسطاً بين بين .

١١-...{وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ} أي لا تبالغ في الكلام ، ولا ترفع صوتك فيما لا فائدة فيه ، ولهذا قال {إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ} قال مجاهد : (إن أقبح الأصوات لصوت الحمير . أي غاية من رفع صوته أنه يُشبه بالحمير في علوه ورفعه ، ومع هذا هو بغيض إلى الله ، وهذا التشبيه بالحمير يقتضي تحريمه وذمه غاية الذم لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال :-

أ-...(ليس لنا مثل السوء ، العائد في هبته كالكلب يعود في قيئه) .

ب-...إذا سمعتم أصوات الديكة ، فسلوا الله من فضله ، فإنها رأت ملكاً ، وإذا سمعتم نهيق الحمار فتعوذوا بالله من الشيطان ، فإنها رأت شيطاناً) .

من هداية الآيات :

١-...مشروعية وصية الوالد لابنه بما ينفعه في الدنيا والآخرة .

٢-...البدء بالتوحيد والتحذير من الشرك لأنه ظلم يحبط الأعمال .

٣-...وجوب الشكر لله ، وللوالدين ، ووجوب برهما ووصلتهما .

٤-...وجوب طاعة الوالدين في غير معصية الله ، لقول الرسول صلى الله عليه وسلم (لا طاعة لأحد في معصية الله إنما الطاعة في المعروف) .

٥-...وجوب اتباع سبيل المؤمنين الموحدين ، وتحريم اتباع المبتدعين .

٦-...مراقبة الله تعالى في السر والعلن ، وعدم الاستخفاف بالحسنة والسيئة مهما قلت أو صغرت .

٧-...وجوب إقام الصلاة بأركانها وواجباتها والاطمئنان فيها .

٨-...وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عن علم ، ولطف حسب استطاعته .

قال الرسول صلى الله عليه وسلم : (من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان).

٩-...الصبر على ما يلحق الأمر والناهي من أذى ، وأنه من عزم الأمور .

١٠-...تحريم التكبر والاختيال في المشي .

١١-...الاعتدال في المشي مطلوب ، فلا يسرع ولا يبطئ .

١٢-...عدم رفع الصوت زيادة على الحاجة ، لأنه من عادة الحمير . *المرجع: (كتاب كيف نربي أولادنا).

قال تعالى: وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (١٢) وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (١٣) وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ (١٤) وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١٥) يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (١٦) يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (١٧) وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (١٨) وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ (١٩)

من فضائل أم المؤمنين عائشة ومناقبها

حبيبة رسول الله رضي الله عنها

الشيخ: عاطف الفيومي

هذه صفحات مشرقة بضياء الهدى، وشموس الحق، من تاريخ الإسلام، وسير الفاتحين والأعلام، وحديثنا هنا عن شمس أضاءت الأمة علمًا وفقهًا، كما أضاءت بيت النبوة أدبًا وعطرًا وخلقًا، إنها حبيبة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ، وأم المؤمنين الحصان الرزان، عائشة بنت صديق هذه الأمة، رضي الله عنها وعن أبيها، وهاكم المختصر الوجيز من سيرتها العاطرة.

١– التعريف بها: هِيَ أمُّ المؤمنينَ أمُّ عبدِ الله: عائشةُ بنتُ الإمام الصِّدِّيق الأكْبر، خليفةِ رسولِ الله – صلَّى الله عليه وسلَّم – أبِي بَكْرٍ عبدِ الله بنِ أبي قُحَافةَ عثمانَ بنِ عامرِ بن عمرو بن كعْب بن سعْد بن تَيْم بن مُرَّة، بن كعْب بن لُؤيٍّ؛ القرشيَّة التيميَّة، المكيَّة، النبويَّة، أم المؤمنين، زَوْجة النبيِّ – صلَّى الله عليه وسلَّم – أفْقَه نِساءِ الأُمَّة على الإطلاق. وأمُّها هي: أُمُّ رُومانَ بنتُ عامرِ بن عُوَيمر، بن عبدِ شمْس، بن عتاب ابن أُذينة الكِنانية. هاجَر بعائشةَ أبواها، وتزوَّجها نبيُّ الله – صلَّى الله عليه وسلَّم – قبل مهاجِره بعدَ وفاة الصِّدِّيقة خديجة بنت خُوَيلد، وذلك قبلَ الهجرة ببضعة عشَرَ شهرًا، وقيل: بعامين، ودخَل بها في شوَّال سَنَةَ اثنتين منصرفَه – عليه الصلاة والسلام – من غزوةِ بدر، وهي ابنةُ تِسْع، فرَوَتْ عنه علمًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه، وعن أبيها، وعن عمر، وفاطمة، وسعْد، وحمْزَة بن عمرو الأسْلمي، وجُدَامَةَ بنتِ وهْب.."[١].

٢– حبُّ النبيِّ – صلَّى الله عليه وسلَّم – لها:

اختارَها الله لنبيِّه، حيثُ رآها في المنام، كما جاء في الصحيحَيْن – واللَّفْظ لمسلِم – عن عائشةَ قالتْ: قال رسولُ الله – صلَّى الله عليه وسلَّم –: ((أُريتكِ في المنام ثلاثَ ليالٍ، جاءَني بكِ المَلَك في سَرَقةٍ (قطعة) مِن حريرٍ، فيقول: هذه امرأتُك، فأَكْشِف عن وجْهكِ، فإذا أنتِ هي، فأقول: إنْ يَكُ هذا مِن عندَ الله يُمضِه)). وعن عمرِو بن العاص – رضي الله عنه – قال: بعَثَني رسولُ الله – صلَّى الله عليه وسلَّم – على جيشِ ذاتِ السلاسل، قال: فأتيتُه قال: قلتُ: يا رسولَ الله، أيُّ الناس أحبُّ إليك؟ قال: ((عائشة))، قال: قلت: فمِن الرِّجال؟ قال: ((أبوها إذًا))، قال: قلت: ثُمَّ مَن؟ قال: ((عمر))، قال: فعدَّ رِجالاً"؛ أخرجه الشيخان.

٣- دعاءُ النبيِّ - صلَّى الله عليه وسلَّم - لها: عن عائشةَ قالت: لَمَّا رأيتُ مِن النبي - صلَّى الله عليه وسلَّم - طِيبَ النَّفْس قلت: يا رسولَ الله، ادعُ اللهَ لي، فقال: ((اللهمَّ اغفرْ لعائشةَ ما تقدَّم مِن ذنبِها وما تأخَّر، وما أسَرَّتْ وما أعْلَنتْ))، فضحِكتْ عائشةُ حتى سقَط رأسها في حجْرِ رسولِ الله - صلَّى الله عليه وسلَّم - من الضحِك، فقال: ((أيَسرُّكِ دُعائي؟))، فقالت: وما لي لا يَسرُّني دعاؤك؟! فقال: ((واللهِ إنَّها لدَعْوَتي))؛ أخرجه البزَّار في مسنده، وحَسَّنه الألباني.

٤- ثناءُ النبي - صلَّى الله عليه وسلَّم - وصحابته عليها: عن أبي موسى الأشعريِّ - رضي الله عنه - قال: قالَ رسولُ اللَّهِ - صلَّى الله عليه وسلَّم -: ((كَمَلَ منَ الرِّجال كثيرٌ، ولم يَكْمُلْ منَ النِّساءِ إلاَّ مريمُ بنتُ عِمرانَ، وآسِيةُ امرأةُ فِرعونَ، وفضْلُ عائشةَ على النِّساءِ كفَضْلِ الثَّريدِ على سائرِ الطعام))؛ صحيح البخاري. وعَنْ عَائِشَةَ - رضِي الله عنها - قَالَتْ: قال - صلَّى الله عليه وسلَّم - يَوْمًا: ((يا عائِشَ، هَذا جبْريلُ يُقْرِئُكِ السَّلَامَ))، فَقُلْتُ: وَعليه السلام ورحْمَةُ اللَّهِ وبَرَكاتُه، تَرَى ما لا أَرى - تُرِيدُ رَسُولَ اللَّهِ، صلَّى الله عليه وسلَّم؛ رواه الشيخان - البخاريُّ ومسلم. وعن الحَكَم: سمعتُ أبا وائلٍ قال: "لَمَّا بعَثَ عليٌّ عَمَّارًا والحسنَ إلى الكوفَة؛ ليستَنفِرَهم، خَطبَ عمَّارٌ فقال: إنِّي لأعلمُ أنَّها زوجتُهُ في الدُّنيا والآخِرة، ولكنَّ اللَّهَ ابتَلاكم؛ لتتبعوهُ أو إيَّاها"؛ رواه البخاري. وعَنْ أَنَسِ بن مالكٍ - رضي الله عنه - قال: سَمِعْتُ رَسولَ اللَّهِ - صلَّى الله عليه وسلَّم - يَقولُ: ((فَضْلُ عائِشَةَ على النِّساءِ كَفَضْلِ الثَّريدِ على الطَّعام))؛ رواه الشيخان - البخاري ومسلم.

٥- عبادتها وزُهدها: وقد كانتْ أُمُّ المؤمنين كثيرةَ الصيام، حتى ضعُفت، كما جاء في السِّيَر للذهبي - رحمه الله تعالى - عن عبدِالرحمن بن القاسِم، عن أبيه: أنَّ عائشةَ كانتْ تصوم الدَّهْر. كما كانتْ زاهدةً في الدنيا، فعَنْها قالت: "ما شَبِع آلُ محمَّد يومَيْن من خُبزِ بُرٍّ إلا وأحدهما تَمْر"؛ متفق عليه. وعن عطاء: أنَّ معاويةَ بعَث إلى عائشةَ بقِلادةٍ بمائةِ ألْف، فقسمتْها بيْن أمَّهات المؤمنين، وعن عُروةَ، عن عائشة: أنَّها تصدَّقتْ بسَبْعِين ألفًا؛ وإنَّها لتُرقِّع جانبَ دِرْعها - رضي الله عنها. وعن أُمِّ ذَرَّة، قالت: بعَث ابنُ الزبير إلى عائشةَ بمالٍ في غِرَارتَيْن، يكون مائة ألْف، فدَعَتْ بطَبَق، فجعَلتْ تقسم في الناس، فلمَّا أمسَت، قالت: هاتِي يا جاريةُ فُطوري، فقالت أُمُّ ذَرَّة: يا أمَّ المؤمنين، أمَا استطعتِ أن تشتري لنا لحمًا بدِرْهم؟! قالت: لا تُعنِّفيني، لو أذْكَرتني لفعلتُ[٢].

٦- فِقهُ وعِلم أمِّ المؤمنين عائشة - رضي الله عنها -: قال الزُّهريُّ: لو جُمِع عِلمُ عائشة إلى عِلمِ جميعِ النساء، لكان علمُ عائشةَ أفْضلَ[٣]. كما أنَّ الله قد وهَبَها الذكاءَ والفِطنة، وسُرعةَ الحافظة، قال ابن كثير: "لم يَكُن في الأُمم مثلُ عائشةَ في حِفْظها وعِلْمها، وفصاحتِها وعَقْلِها"، ويقول الذهبيُّ: "أفْقَهُ نِساء الأمَّة على الإطلاق، ولا أعْلمُ في أمَّة محمَّد، بل ولا في النِّساء مطلقًا امرأةً أعلمَ منها".

وقدْ تجاوز عددُ الأحاديث التي روتْها ألْفَيْن ومائة حديث عن النبيِّ - صلَّى الله عليه وسلَّم - وهي مُشتَهِرة في كُتُب السُّنَّة: البخاري ومسلم، والسُّنن والمسانيد، وغيرها؛ قال الحافظُ الذهبيُّ: مُسْنَد عائشة يبلُغ ألْفَين ومائتين وعشرة أحاديث؛ اتَّفق

البخاريُّ ومسلمٌ لها على مائةٍ وأربعةٍ وسبعين حديثًا، وانفرَد البخاريُّ بأربعةٍ وخمسين، وانفرد مسلِمٌ بتِسعة وستِّين[٤]. ويقول عُروةُ بنُ الزُّبَيْر: "ما رأيتُ أحدًا أعلمَ بفِقه، ولا بطِبٍّ ولا بشِعر من عائشةَ – رضي الله عنها"، وقال فيها أبو عُمرَ بنُ عبدالبرِّ: "إنَّ عائشةَ كانتْ وحيدةً بعصرها في ثلاثةِ علوم: علم الفقه، وعلم الطب، وعلم الشِّعر". كما كانتِ المرجعَ الكبيرَ لكِبار الصحابة، خاصَّة عندَ المواقف والملمَّات، كما كانتْ تُفتي بما لدَيْها من عِلمٍ وفِقه في عهد الخليفةِ عمرَ وعثمانَ – رضي الله عنهما – إلى أن تُوفِّيت – رحمها الله ورضي عنها.

٧– نزول برائتِها مِن حادثة الإفْك من عندَ الله تعالى: وقدْ تعرَّضَتْ – رضِي الله عنها – إلى ابتلاءٍ شديد، وفِتْنةٍ كبيرة، حيث طَعَن في شرَفِها وعِرْضها المنافقون في المدينة، فأنْزَل الله براءتَها من فوقِ سبعِ سموات، وقد قالتْ – رضي الله عنها – كما في الصحيحين: "... ثُمَّ تحولتُ واضطجعتُ على فِراشي، والله يعلم أنِّي حينئذٍ بريئةٌ، وأنَّ الله مُبرِّئي ببراءتي، ولكن واللهِ ما كنتُ أظنُّ أنَّ الله منزلٌ في شأني وحيًا يُتْلَى، لشأني في نفْسي كان أحْقرَ مِن أن يتكلَّم الله فيَّ بأمْر، ولكن كنتُ أرْجو أن يرَى رسولُ الله – صلَّى الله عليه وسلَّم – في النومِ رُؤيَا يُبرِّئني الله بها، فواللهِ ما رام رسولُ الله – صلَّى الله عليه وسلَّم – مجلسَه، ولا خرَج أحدٌ مِنْ أهل البيت حتَّى أُنزِل عليه، فأخَذَه ما كان يأخُذُه من البُرَحَاء، حتى إنَّه ليتحدَّر منْه مِن العَرَق مثل الجُمَان، وهو في يومٍ شاتٍ مِن ثِقَل القوْل الذي أُنزِل عليه. قالت: فَسُرِّي عن رسول الله – صلَّى الله عليه وسلَّم – وهو يَضْحَك، فكانتْ أوَّل كَلمةٍ تَكلَّم بها أنْ قال: ((يا عائشةُ، أمَّا اللهُ فقدْ بَرَّأكِ))، قالت: فقالتْ لي أُمِّي: قُومِي إليه، فقلتُ: واللهِ لا أقومُ إليه، فإنِّي لا أحْمَدُ إلاَّ اللهَ – عزَّ وجلَّ. قالت: وأنزَل الله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ ﴾ [النور: ١١] الآيات...". قال ابنُ كثير: "فغار اللهُ لها وأنْزَلَ براءتَها في عشْر آياتٍ تُتلى على الزمان، فسَمَا ذِكْرُها، وعلا شأنُها؛ لتسمعَ عفافَها وهي في صِباها، فشَهِدَ الله لها بأنَّها مِنَ الطَّيِّبات، ووعدَها بمغفرةٍ ورزق كريم". ومَع هذه المنزلَةِ العالية، والتبرئة العالية الزكيَّة مِنَ الله تعالى، تَتَواضَعُ وتقول: "ولَشَأني في نفْسي أهونُ مِن أن يُنزِل الله فيَّ قرآنًا يُتْلَى"!

٨– خصائص أمِّ المؤمنين – رضي الله عنها –: قال ابنُ القيِّم – رحمه الله –: ومِن خصائصها: أنَّها كانتْ أحبَّ أزواج رسولِ الله – صلَّى الله عليه وسلَّم – إليه، كما ثبَت عنْه ذلك في البخاريِّ وغيره، وقد سُئِل: أيُّ الناس أحبُّ إليك؟ قال: ((عائشة))، قيل: فمِن الرِّجال؟ قال: ((أبوها)).

ومِن خصائصها أيضًا: أنَّه لَمْ يتزوَّج امرأةً بِكرًا غيرها، ومن خصائصها: أنَّه كان يَنزِل عليه الوحيُ وهو في لحافِها دونَ غيرِها، ومِن خصائصها: أنَّ الله – عزَّ وجلَّ – لَمَّا أنزل عليه آيةَ التخيير بدأ بها فخيَّرها، فقال: ((ولا عليكِ ألاَّ تَعْجَلي حتى تستأمري أَبَوَيك))، فقالت: أفِي هذا أسْتَأمِر أبوي؟! فإنِّي أُريد اللهَ ورسولَه والدارَ الآخِرة، فاستنَّ بها – أي: اقتَدَى – بقيةُ أزواجه – صلَّى الله عليه وسلَّم – وقُلْنَ كما قالتْ.

ومِن خصائصها: أنَّ الله سبحانه برَّأها ممَّا رماها به أهلُ الإفك، وأنْزَل في عُذرِها وبراءتِها وحيًا يُتْلَى في محاريبِ المسلمين وصلواتهم إلى يومِ القيامة، وشَهِد لها بأنَّها مِنَ الطيِّبات، ووعَدَها المغفرةَ والرِّزقَ الكريم، وأخْبَر سبحانه أنَّ ما قيل فيها مِنَ الإفك كان خيرًا لها، ولم يكن ذلك الذي قيل فيها شَرًّا لها، ولا عائبًا لها، ولا خافضًا مِن شأنها، بل رَفَعها الله بذلك وأعْلى قدْرَها، وأعْظَمَ شأنها، وصار لها ذِكرًا بالطيب والبراءة بيْن أهلِ الأرض والسماء، فيا لها مِن مَنْقَبة ما أجلَّها!

ومِن خصائِصها – رضي الله عنها –: أنَّ الأكابرَ مِنَ الصحابة – رضي الله عنهم – كان إذا أَشْكَل عليهم أمرٌ مِن الدِّين استفتوها فيَجِدون عِلمَه عندَها. ومِن خصائصها – رضي الله عنها –: أنَّ رسولَ الله – صلَّى الله عليه وسلَّم – تُوفِّي في بيتها، وفي يومِها، وبيْن سَحْرِها ونَحْرها، ودُفِن في بيتها.

ومِن خصائصها – رضي الله عنها –: أنَّ الناسَ كانوا يتحرَّوْن بهداياهم يومَها مِن رسولِ الله – صلَّى الله عليه وسلَّم – تقربًا إلى الرسولِ – صلَّى الله عليه وسلَّم – فيُتْحفونَه بما يحبُّ في منزلِ أحبِّ نسائِه إليه – صلَّى الله عليه وسلَّم ورضي الله عنهنَّ أجمعين[٥].

وقال الإمام بدرُ الدِّين الزَّرْكشيُّ في "الإجابة لإيراد ما استدركتْه عائشةُ على الصحابة" – وهو يَتكلَّم في خصائصها، رضي الله عنها – الأربعين، قال: "والخامِسة – أي: مِن الخصائص –: نزول براءتِها منَ السماء بما نَسَبه إليها أهلُ الإفك في ستَّ عشرةَ آية متوالية، وشَهِد لها بأنَّها من الطيِّبات، ووعَدها بالمغفرةِ والرِّزق الكريم، قال:

والسادس: جَعله قُرآنًا يُتْلَى إلى يومِ القيامة؛ أي: الآيات التي نزلَتْ في براءتِها. وقال – في العاشرة –: وجوب محبَّتِها على كلِّ أحد، ففي الصحيح: لمَّا جاءتْ فاطمة – رضي الله عنها – إلى النبيِّ – صلَّى الله عليه وسلَّم – قال لها: ((ألسْتِ تُحبِّين ما أُحبُّ؟)) قالت: بلى، قال: ((فأَحبِّي هذه – يعني: عائشة))، وهذا الأمْرُ ظاهِرُه الوجوب. وقال – في الحادية عشرة –: إنَّ مَن قذَفها فقَدْ كفَر؛ لتصريحِ القرآن الكريم ببراءتِها، وقال – في الثانية عشرة –: مَن أنْكَر كونَ أبيها أبي بَكْرٍ الصِّدِّيق – رضي الله عنه – صحابيًّا كان كافرًا، نصَّ عليه الشافعيُّ، فإنَّ الله تعالى يقول: ﴿ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾ [التوبة: ٤٠]، ومُنكِر صُحْبةِ غير الصِّدِّيق يَكْفُر لتكذيبه التواتُر[٦]؛ انتهى مختصرًا.

٩- وفاتها – رضي الله عنها –: تُوفِّيت – رضي الله عنها وأرْضاها – سَنةَ سَبْعٍ وخمسين على الصحيحِ، وقيل: سَنَة ثمان وخمسين، في ليلةِ الثلاثاء لسَبْعَ عشرةَ خَلَتْ مِن رمضان بعدَ الوتر، ودُفنت من ليلتها، وصلَّى عليها أبو هريرة، بعدَ أن عمرتْ ثلاثًا وستين سَنَة وأشهرًا – كما ذَكَر الذهبيُّ في "السِّير"[٧].

١٠- حُكم الإسلام فيمَن سبَّ أمَّ المؤمنين عائشة – رضي الله عنها –: قال تعالى في تزكيةِ أمِّ المؤمنين ومكانتِها وغيرِها من زوجاتِ النبيِّ – صلَّى الله عليه وسلَّم –: ﴿ النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ ﴾[الأحزاب: ٦]. وقدْ أجْمَع

علماءُ الإسلام قاطبةً مِن أهل السُّنَّة والجماعة على أنَّ مَن سبَّ أمَّ المؤمنين عائشة – رضي الله عنها – ورَماها بما برَّأها الله منه أنه كافِرٌ، ورُوي عن مالكِ بن أنس أنَّه قال: مَن سَبَّ أبا بكرٍ وعُمرَ جُلِد، ومَن سَبَّ عائشةَ قُتِل، قيل له: لِمَ يقتلُ في عائشة؟ قال مالك: فمَن رماها فقدْ خالَفَ القرآن، ومَن خالف القرآنَ قُتِل. قال أبو مُحمَّد ابنُ حزْم الظاهريُّ – رحمه الله–: قول مالك هذا صحيحٌ، وهي رِدَّة تامَّة، وتكذيبٌ لله تعالى في قَطْعِه ببراءتها. وقال أبو الخطَّابِ ابنُ دِحية في أجوبة المسائل: وشَهِد لقول مالك كتابُ الله، فإنَّ الله إذا ذكَر في القرآن ما نَسَبه إليه المشركون سبَّح نفسَه لنفسِه، قال تعالى: (وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ) [الأنبياء: ٢٦]، والله تعالى ذَكَر عائشةَ، فقال: (وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ) [النور: ١٦]، فسبَّح نفْسَه في تنزيهِ عائشةَ، كمَا سبَّح نفسَه لنفسِه في تنزيهه؛ حكاه القاضي أبو بكر ابن الطيِّب[٨].

وقال أبو بكر ابنُ زياد النيسابوريُّ: سَمعتُ القاسمَ بنَ محمَّد يقول لإسماعيلَ بن إسحاقَ: أُتِي المأمون في (الرَّقة) برَجلين شَتَم أحدُهما فاطمةَ، والآخَرُ عائشةَ، فأمَر بقَتْل الذي شتَم فاطمةَ وترَك الآخَر، فقال إسماعيلُ: ما حُكْمُهما إلاَّ أن يُقتلاَ؛ لأنَّ الذي شتَم عائشةَ ردَّ القرآن.

قال شيخُ الإسلام ابنُ تيمية – رحمه الله – تعقيبًا عليه: وعلى هذا مضَتْ سِيرةُ أهل الفِقه والعِلم مِن أهل البيت وغيرِهم. وقالَ ابنُ العربيِّ – رحمه الله –: كلُّ مَن سبَّها بما برَّأها الله منه فهو مُكذِّب لله، ومَن كذَّب الله فهو كافِر.

وقال ابن قُدامة: فمَن قذَفها بما بَرَّأها الله منه فقدْ كفَر بالله العظيم. وقال الإمامُ النوويُّ – رحمه الله –: براءةُ عائشة – رضي الله عنها – مِنَ الإفْك، وهي براءةٌ قطعية بنصِّ القرآن العزيز، فلو تَشكَّك فيها إنسانٌ – والعياذ بالله – صار كافرًا مرتدًّا بإجماعِ المسلمين. وقال ابنُ القيِّم – رحمه الله –: واتَّفقتِ الأُمَّة على كُفْر قاذفِها.

وقد رُوِي عَنْ عَمْرِو بنِ غالِبٍ: أنَّ رَجُلاً نالَ مِنْ عائِشَةَ عندَ عَمَّارٍ، فقالَ: اغْرُبْ مَقْبُوحًا، أَتُؤْذِي حَبِيبةَ رَسُول الله – صلَّى الله عليه وسلَّم؟! قال الذهبيُّ في السِّيَر: صحَّحَه الترمذيُّ في بعضِ النُّسخ، وفي بعضِ النُّسخ قال: هذا حديثٌ حسَن.

[١] سير أعلام النبلاء (٢/١٣٥).

[٢] سير أعلام النبلاء (٢/١٨٧).

[٣] سير أعلام النبلاء (٢/١٤١).

[٤] سير أعلام النبلاء (٢/١٣٩).

[٥] جلاء الأفهام (ص: ٢٣٧ – ٢٤١).

[٦] الإجابة لإيراد ما استدركته عائشة على الصحابة؛ للزركشي.

[٧] السير (٢/١٩٢).

[٨] الإجابة لإيراد ما استدركته عائشة على الصحابة (ص: ٢٩).

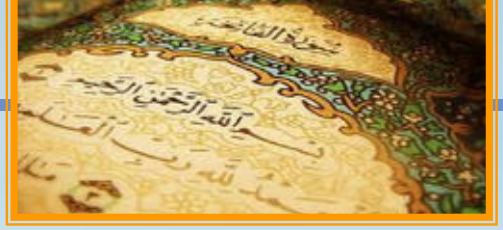

السنن والبدع

أخطاء شائعة

في قراءة الفاتحة

من تراث الشيخ: محمد بن جميل زينو

أولاً: قراءة القرآن على الأموات: ولا سيما سورة الفاتحة:

١- ...لأن القرآن أنزله الله للأحياء ليعملوا به ، لا للأموات ، قال الله تعالى عن القرآن :

{لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا} ، وفي الحديث : قال (إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له) .

٢- ...ذكر ابن كثير في تفسير قول الله تعالى :

{وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَى} ...

فقال : أي كما لا يحمل عليه وزر غيره ، كذلك لا يحصل من الأجر إلا ما كسب هو لنفسه .

...ومن هذه الآية الكريمة استنبط الإمام الشافعي رحمه الله أن القراءة لا يصل إهداء ثوابها للموتى ، لأنه ليس من عملهم ، ولا كسبهم ، ولهذا لم يندب إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم أمته ، ولا حثهم عليها ، ولا أرشدهم إليه بنص ، ولا إيماء ، ولم ينقل ذلك عن أحد من الصحابة ، ولو كان خيراً لسبقونا إليه .

...وباب القربات يُقتصر فيه على النصوص ، لا يتصرف فيه ...فأما الدعاء والصدقة فذلك مجمع على وصولهما ، ومنصوص من الشارع عليها .

٣- ...وسمعت امرأة سورة الفاتحة من الإذاعة فقالت : أنا لا أحبها ، لأنها تذكرني بأخي الميت ، وقد قرئت عليه (لأن الإنسان يكره الموت وما يلوذ به) .

٤- ...لم يثبت عن الرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته أنهم قرأوا الفاتحة ، أو غيرها على الأموات ، بل كان الرسول صلى الله عليه وسلم يقول لأصحابه عند فراغه من دفن الميت : (استغفروا لأخيكم ، وسلوا له التثبيت فانه الآن يسأل) .

٥- ...لم يُعلم الرسول صلى الله عليه وسلم صحابته أن يقرأوا الفاتحة عند دخول المقبرة ، بل علمهم أن يقولوا : (السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين ، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون ، أسأل الله لنا ولكم العافية) . – أي العذاب– . فهذا الحديث يُعلمنا أن ندعو للأموات بالعافية من العذاب ، لا أن ندعوهم أو نستعين بهم .

٦- ...لقد أنزل الله القرآن ليقرأ على من يُمكنهم العمل من الأحياء ، أما الأموات فلا يستطيعون العمل به : قال الله تعالى : {إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ}.

...أي : إنما يستجيب لدعائك يا محمد من يسمع الكلام ويعيه ، أما الكفار فهم موتى القلوب ، فشبههم بأموات الأجساد .

بأنواع الأقيسة والآراء .

ثانياً : قراءة الفاتحة للنبي صلى الله عليه وسلم :

...ليس عليها دليل من القرآن أو السنة ، ولم يفعلها الصحابة ، والدليل جاء بالصلاة عليه صلى الله عليه وسلم .

١- ...قال الله تعالى : {إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا} .

...في هذه الآية يأمرنا الله تعالى أن نصلي على النبي صلى الله عليه وسلم لا أن نقرأ له الفاتحة ، أو ندعوه لتفريج الهموم .

٢- ...وقال النبي صلى الله عليه وسلم : (من صلى عليّ صلاة صلى الله عليه بها عشراً) .

٣- ...وقال صلى الله عليه وسلم : (قولوا : اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم .....)

...والتوسل بالصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم مشروع عند الدعاء ، لأنه من العمل الصالح فنقول مثلاً :

...اللهم بصلاتي على نبيك محمد صلى الله عليه وسلم فرج عني كربتي وصلى الله على محمد وآله وسلم .

ثالثاً : قراءة الفاتحة عند عقد النكاح :

١- ...ليس عليها دليل من القرآن والسنة ، وإنما هي من عادات الناس ، ولا سيما إذا اعتقدوا أن عقد النكاح يتم بقراءتها ، علماً بأن العقد لا يتم إلا بالصيغة الشرعية :

وهو قول ولي الزوجة للزوج أو وكيله : (زوجتك ابنتي على مهر ... قدره كذا ، فيجيب الزوج أو وكيله :

قبلت تزويجك على ما ذكرت من المهر) .

٢- ...السنة في عقد النكاح أن يقرأ العاقد خطبة الحاجة ، وقد بدأ بها النبي خطبه ، وعلمها الرسول صلى الله عليه وسلم أصحابه أن يبدأوا بها خطبهم ، وهذا نصها :

(إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ} {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا}{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا} .

أما بعد :

فإن أصدق الحديث كتاب الله تعالى ، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم وشر الأمور محدثاتها ، وكل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة في النار) .

الخلاصة : إن قراءة الفاتحة للأموات ، والى روح النبي صلى الله عليه وسلم ، وعند عقد النكاح ، وغيرها من البدع التي لا دليل عليها من الدين ، وفي الحديث :(من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد) .

*المرجع : (تفسير وبيان لأعظم سورة في القرآن).

لم يثبت عن الرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته أنهم قرأوا الفاتحة ، أو غيرها على الأموات ، بل كان الرسول صلى الله عليه وسلم يقول لأصحابه عند فراغه من دفن الميت : (استغفروا لأخيكم ، وسلوا له التثبيت فانه الآن يسأل) .

لم يُعلم الرسول صلى الله عليه وسلم صحابته أن يقرأوا الفاتحة عند دخول المقبرة ، بل علمهم أن يقولوا : (السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين ، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون ، أسأل الله لنا ولكم العافية) . - أي العذاب- . فهذا الحديث يُعلمنا أن ندعو للأموات بالعافية من العذاب ، لا أن ندعوهم أو نستعين بهم .

الأقصى يناديكم

شعر الدكتور الشاعر: عبد الرحمن بن صالح العشماوي

قُطع الطريقُ عليّ يا أحبابي ووقفتُ بين مكابر ومحابي
ذكرى احتراقي ما تزالُ حكايةً تُروى لكم مبتورة الأسبابِ
في كل عامٍ تقرؤون فصولَها لكنكم لا تمنعون جَنابي
أوَ ما سمعتم ما تقول مآذني عنها ، وما يُدلي به محرابي؟
أوَ ما قرأتم في ملامح صخرتي ما سطرته معاولُ الإرهابِ؟
أوَ ما رأيتم خنجرَ البغي الذي غرسته كفُّ الغدر بين قِبَابي؟
أخَواي في البلد الحرام وطيبةٍ يترقبان على الطريق إيابي
يتساءلان متى الرجوع إليهما يا ليتني أستطيعُ ردّ جوابِ
وأنا هُنا في قبضة وحشيّة يقف اليهوديُّ العنيدُ ببابي
في كفّه الرشاش يُلقي نظرة نارية مسمومة الأهدابِ
يرمي به صدرَ المصلّي كلما وافى إليّ مطهّرَ الأثوابِ
وإذا رأى في ساحتي متوجّهاً لله ، أغلقَ دونه أبوابي
يا ليتني أستطيعُ أن ألقاهما وأرى رحابَهما تضمُّ رحابي
أوَ لستُ ثالثَ مسجدين إليهما شدّتْ رحالُ المسلم الأوّابِ؟
أوَ لم أكن مهدَ النبوّاتِ التي فتحت نوافذ حكمةٍ وصوابِ؟
أوَ لم أكن معراجَ خير مبلّغ عن ربّه للناس خيرَ كتابِ ؟
أنا مسجد الإسراء أفخرُ أنني شاهدتُه في جيئة وذهابِ

يا ويحكم يا مسلمون ، كـأنمـــا عَقِمَتْ كرامتكـــم عن الإنجـابِ

وكأنَّ مأساتي تزيدُ خضوعـــكم ونكـــوص همّتكم على الأعقابِ

وكأنّ ظُلْمَ المعتدين يسرُّكـــم وكأنـــّكم تستحسنون عذابـــي

غيّبتموني في سراديب الأســـى يا ويلَ قلـــبي من أشـــدّ غيابِ

عهدي بشدْو بلابلي يسري إلـــى قلبي ، فكيف غدا نعيقَ غُرابِ ؟!

وهلال مئذنتي يعانق ما عـــلا من أنجـــم وكواكبٍ وسحابِ

أفتأذنون لغاصبٍ متطـــاولٍ أنْ يدفـــن العلياء تحت ترابي؟!

* * *

يا مسلمون ، إلى متى يبقـــى لكم رَجعُ الصدى، وحُثالةُ الأكوابِ ؟؟

يا مسلمون ، أما لديـــكم هِمّة تجتـــاز بالإيمان كلّ حجابِ ؟؟

أنا ثالث البيتين هـــل أدركتمـــو أبعـــادَ سرّ تواصل الأقطابِ؟!

إني رأيتُ عيونَ من ضحكوا لكم وأنـــا الخبيرُ بها ، عيونَ ذئابِ

هم صافحوكم والدماءُ خضابُـهم وا حـــرّ قلبي من أعزّ خَضَابِ

* * *

هذي دماءُ مناضلٍ ، ومنـــافح عن عرضـــه ، ومقاوم وثّابِ

ودماءُ شيخ كان يحمـــلُ مصحفاً يتـــلو خواتـــَم سورة الأحزابِ

ودماءُ طفلٍ كان يســـألُ أمّـــهُ عن ســـرّ قتل أبيه عندَ البابِ

إني لأخشى أن تروا في كفّ مَن صافحتمـــوه ، سنابلَ الإغضابِ

* * *

هم قدّموا حطباً لموقد ناركـــم وتظـــاهروا بعداوة الحطّابِ

عجَباً أيرعى للسلام عهـــوده مَنْ كـــان معتاداً على الإرهابِ؟؟

من مسجد الإسراء أدعوكم إلـــى سفـــر الزمان ودفتر الأحقابِ

فعلّكم تجدون في صـــفحاتـــهِ مـــا قلتُهُ ، وتُـثـمّـنون خطابي

* * *